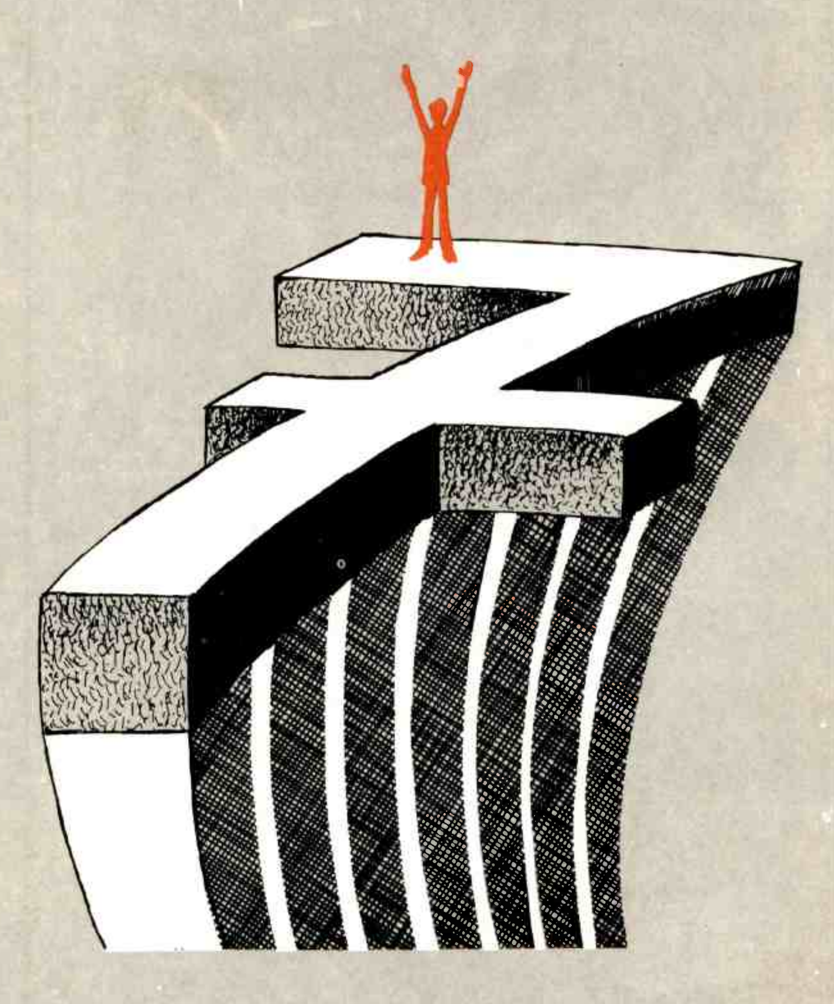
# أعمدة الجنون السبعة

هشام القروي



الدار العربية للكتاب

# أعمدة الجنون السبعة

## رواية

هشام القروي



https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

الدار العربية للكتاب

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

إلى جميع من قاوموا الإرهاب وسقطوا
في معركة الشرف ضدّ الصهاينة .
إلى شهداء فلسطين ولبنان .

يوم أسود
في بيت وهميّ
لا تنتهي أروقته و " كواليسه " التي
بلا لون
الحيطان مشقّقة الأبواب تومىء
بالصمت
وسط أقفاص المصاعد
عيون بين الأصابع
تتبعنا
في كلّ مكان صمت مكتوب
الزمن يدخّن خفية
ضيّعنا السيناريو
وكلّ الماضي سهوا
أتلفناه
وها نحن مبتوري الجناحين من الكتفين
ضعي في يدي يدك الرّاجفة
ليس هذا طابقنا
لقد صعدنا عاليا جدّا من مسطّحة
على سلّم حديدي مثقّب الدّرجات

من يدري
قد تكون الحياة في النّهاية
صورة مخفقة

بين قفافيزهم الغريبة أخذك الناس
عنك أنت أتحدّث فيما أدير عيني إلى السقف
عنك أنت ، عن عينيك عن ذكراك
أخاف في البعد حين تكلّمين أخاف حين
تصمتين
أخاف الصّورة والجملة
أخاف مثلما أغار أحيانا
من العيون الأخرى التي تراك
في هذا القرن الغريب يمكن لامرأة أن تكون
هكذا فريسة الآخر وظلّه
يا لجنوني لماذا أخذتك إلى هنا
وكيف أستطيع الآن حفظك لي وحدي

إنهم يريدون
أن يعرفوا الطفلة التي كنت ، الشجرة التي
تستندين إليها
تلك القبّعة من القشّ
هم يريدون أن يعرفوك قبلي .
هم يدوّخونني بأصواتهم
وهذه ليست المرّة الأولى التي يحاولون فيها
أخذك

منّي ولا
الأخيرة

كان بودّي أن تكوني لي وحدي وأن
يكون العالم حجرة فندق

آراغون – الحجرات
قصيدة الزمن الذي لا يمرّ

كلمة لا بدّ منها :

يهمّ الكاتب أن يشير إلى أن أحداث هذه الرواية وشخصّياتها كلّها من نسيج الخيال ، وكلّ اشتباه بأحداث وأشخاص واقعيّين لا يمكن أن يكون إلاّ من قبيل الصّدفة طبعا !

# ريح سبتمبر

أيّهما أفضل ؟ أ الخنجر أم المسدّس ؟ أ طعنة في القلب أم طلقة في الرأس ؟ مع رجل مثله ، سوف تكون الطلقة رأفة به . هل يستحقّ هذه الرأفة ؟ كلاّ . الأفضل أن أطعنه في عنقه . لمسة واحدة بحدّ الخنجر سوف تمزّق شرايينه ، وتفتح في عنقه ثغرة قاتلة . ثمّ يأتي الموت ببطء . ويتفجّر الدّم ، تجحظ العينان ، وكأنهما لا تصدّقان . تحاول اليدان التشبّث بشيء ما . لن أدعه يتشبّث بشيء . من يدري ؟ قد يكون مسلّحا . سوف يحاول الدفاع عن نفسه . لا بدّ من الاحتياط . هذا احتمال وارد . يجب أن أكون أسرع منه . لكن ، لو أطلق عليه الرصاص ... الرصاصة سريعة . لا مجال معها للمقاومة . طلقة واحدة بين العينين، وينتهي كلّ شيء . مع الخنجر ، يختلف الأمر . يجب أن أكون قريبا منه . وإذا لم تكن الطعنة قاتلة ؟ طعنة واحدة لا تكون قاتلة أبدا . عليّ أن أطعنه أكثر من مرّة . مرّتان ، ثلاثا ، أربعا ، خمسا ... أن أرفع يدي إلى فوق ، وأنزلها بقوّة . وأكرّر ذلك ، والخنجر يشقّ اللحم في كلّ مرّة . منغرزا بصمت ، وبلا هوادة . ما الذي يمكن أن يوقف

الخنجر ؟ لا شيء سوى العظم . إذن ، يجب أن يجد الخنجر طريقه إلى مكان قاتل لا تحميه العظام . العنق أفضل مكان . العنق للذّبح ، حتّى يشخر كالخروف . لكنّ العملية أصعب . القفص الصدري أرحب ومكشوف أكثر . إنه قابل للطعن . والضّلوع لن تقدر على مقاومة خنجري الإفريقيّ . خنجر صيد ! ..... يطعن به الأفارقة الوحوش الأشدّ فتكا بالإنسان . الأسود نفسها ترضخ لحكمه ، وتموت بلا جدال . هل تجادل ضلوع الإيرانيّ حكم خنجري ؟ كلاّ . لا يجب ذلك . لن يكون ، إلاّ ... إذا أخطأته . سوف تكون تلك حماقة لا تغتفر . فأنا إن أخطأته منذ الوهلة الأولى ، ربّما وجد الفرصة سانحة للدفاع عن نفسه وصدّ هجومي . هذا يعني أن العملية كلّها تفشل وتسقط في الماء . غباء ! غباء ! عليّ أن أطلق النار وحسب . ما أن يفتح الباب حتّى أطلق عليه العيار الأول والثاني والثالث حول الانف . ثانية لفتح الباب ، وثانية للرصاص ، وتنتهي العملية بلا جدال . طعنة الخنجر جميلة ، ولكن فيها مضيعة للوقت ومجازفة ، لا مجال لذلك . ثمّ ... لربّما صرخ واستنجد . كلاّ . لو أطعنه في اللحظة التي يفتح فيها الباب بالضبط ، لن يجد الوقت للصّراخ ، بل سيفاجأ . لكن لماذا المقامرة ؟ وبالنسبة إليه ، لن يكون ثمّة اختلاف بين الموت بطعنة خنجر ، أو الموت برصاصة . للموت مذاق واحد في كلا الحالتين . هل حقّا له نفس المذاق ؟

مشكلة ! أنا لم أجرّب . ومع ذلك ، يبدو لي أنه ليس الشيء نفسه . الموت هو الموت ، لا شكّ في هذا . إنّما في الموت مطعوننا عذاب لا مثيل له . كالموت ببطء احتراقا أو غرقا . هناك برهة إدراك حادّ في تلك اللحظات الأخيرة التي تسبق السّديم . برهة ربّما تطول إلى ما لا نهاية ، لتشمل الحياة بأسرها . كيف يشعر المطعون آنئذ ؟ ربّما رأى أن لا معنى لحياته وحياة الناس أجمعين . ربّما أشفق على قاتله لأنه خلّصه دون أن يدري أنه يخلّصه . إنّه معذور لذلك . الفريسة لم تعد الفريسة . لقد أصبحت الصّيّاد ، وأصبح القاتل هو المقتول . كلاّ . مع الرصاص ينعدم الإحساس بالزمن . بين الرصاصة والموت لا توجد سوى المسافة التي بين فوهة المسدّس والرأس . لا أحد يعرف ما يحدث بعد ذلك . يقال إنّ الإنسان يسلك دهليزا مظلما طويلا حتّى يرى في آخره نورا غريبا . لعلّه نور الله ! لكن هذه خرافات للعجائز والصّبيان . لم يعد أحد من الموت ليخبرنا عمّا رآه . وأنا لا يمكنني تصديق ما يرويه بعض المجانين عن رحلة الموت . يكفيني أن أعرف أنها الرحلة الأخيرة التي لا يوجد بعدها شيء مطلقا . ما حاجتي إلى الاعتقاد بحياة أخرى ؟ أنا حيّ الآن ، وهذه الحياة كافية . الرصاصة كافية أيضا . السرعة هي كل شيء . لن يرى حتّى قاتله . لن يجد الوقت لإدراك أيّ شيء ، ولا لفعل أيّ شيء . الوقت ! كلّها مسألة وقت . الحياة مسألة

وقت ، والموت كذلك . ماذا لو كلّمته ؟ ... حتّى يعرف . سيكون ممتنًا لي ، لأنّني أمنحه فرصة إدراك ما يحدث له ، لكن فيم يفيده ذلك ؟ سوف يتوسّل لي آنذاك بأن أتركه على قيد الحياة أو ... كلاّ . سوف يحاول قتلي . الفرصة الأخيرة ، واللحظة الأخيرة ، والكلمات الأخيرة . وأنا ... ماذا أقول له ؟ " جئت لأقتلك ! " كلاّ . لن أقول أيّ شيء . ألا يعلم أنه يخاطر بالموت في وجوده هنا ؟ بلى . هو يعلم ذلك . لماذا رجع إذن ؟ كان بإمكانه الإفلات منّا . هل هو أبله إلى هذه الدّرجة ؟ أم تراه يعتقد أنّهم لم يكشفوه ؟ وكأن ذلك لا يكفي ، ها هو يحاول أن يعيد اللّعبة بصفقة ثانية ! الصفقات من هذا النوع ليست جديدة عليهم . إنّهم ليسوا بلهاء إلى هذا الحدّ . ما الذي دعاه إلى لعب هذا الدور الكريه ؟ المال ، الطّمع ، الجشع . هذا النوع من الناس لا يشبع أبدا . إنّهم لا يعرفون للقناعة معنى . تلك مصيبتهم . كان بالإمكان أن تجري الأمور على نحو آخر . كان بالإمكان أن يكون واحدا منّا . لكنه فضّل اللعب على خيطين . شيء مقزّز ! أكاد أشعر بالغثيان لدى التفكير في ذلك . كم من الرفاق كانوا ضحيّة هذه اللّعبة القذرة ؟ وقعوا في الفخّ المنصوب لهم من طرف هذا الإيراني الطّمّاع . صابر ، أبو هاشم ، ندى ... وغيرهم . اللّه يجازيه ! وبانتظار أن يجازيه اللّه في الجحيم ، سوف أتولّى

أنا إرساله إلى هناك ، في البريد السريع . إنه مع ذلك ليس غبيّا . لا شكّ أنّه احتسب كل الاحتمالات . لن يستقبلني بالتّرحيب والقهوة . وحين يفتح الباب ويراني سوف يرتاب في الأمر . لكنّه لن يظهر ريبته . بل ربّما دعاني فعلا لشرب القهوة . ربّما أعتقد أنّ خطته نجحت ، وأنني جئت لأعلمه أنهم يوافقون على الصّفقة . يجب ألاّ أدعله الوقت للتفكير ، وأطلق عليه النار منذ اللحظة الأولى. ومن الأفضل ألاّ أكلّمه بتاتا . ترى ، هل هو نائم الآن ؟ ألا يشعر الإنسان في هذه الحالة أنه سيموت ؟ أليس هناك نذير يخبره ؟ ألا توجد علامة على المصير ؟ كيف يمكن ألاّ يحدس الإنسان أن الموت مقبل عليه ؟ على الأقلّ حين يستيقظ في الصباح ، حين ينظر إلى وجهه في المرآة ، وهو يحكّ أسنانه ، حين يحلق ذقنه أو حين يتناول طعامه ، حين يلبس ثيابه ويخرج ، أو حين لا يخرج ويبقى في البيت ، حين ينظر من النافذة إلى الطريق ، أو حين يشرب قهوة ، حين يقرأ الجريدة أو حين يفتح المذياع ... ألا يشعر ؟ ألا يحسّ أنّ هذا النهار لا يشبه غيره ، وأنّه لن يكون بعده نهار آخر ، ولن يكون سوى الليل والظّلمة الممتدة إلى ما لا ينتهي ؟ من يدري ؟ لعلّه يشعر بذلك . لكن لو كان ذلك فعلا لما أمكنه أن يبقى في نفس المكان منتظرا الموت . لعلّه سيتظاهر بالدّهشة لدى رؤيتي ، ويقول : " آه ! أنت ! وما الذي

أتى بك في مثل هذه الساعة ؟ لم أكن انتظرك الآن ... " وأرى الحيرة ترتسم على وجهه . ذلك الوجه الأبيض المدّور ، بعينيه الضّيقتين ، وأنفه الأفطس ، وفمه ذي الشفة السفلى المتدّلية . إن صورته لا تزال راسخة في ذاكرتي مع أنني لم أره سوى مرة واحدة . أمّا هو ، فليس من المؤكّد أنه سيعرفني . ربما نسيني لطول المدّة . لقد مرّ عام الآن على لقائنا في فندق " البريستول ". أذكر أنّه بدا لي آنئذ غريبا نوعا ما كان كالمخدّر تقريبا ، أم لعلّه كان يتظاهر بذلك ! لكن لماذا ؟ كان في حركاته شيء من الرّخاوة غير الطبيعية . هل كانت مفتعلة الى ذلك الحدّ ؟ فكّرت آنذاك أنه مخنّث ، يميل إلى الرجال ، ولكنّي فوجئت برؤية صديقته الإيطالية تدخل بار الفندق وتعانقه بشغف . ليس من المنطقيّ أن يكون مخنّثا وتعانقه المرأة بتلك الطريقة المفتتنة . قال لي : " هذه غابريلا ... وهي للأصدقاء ، غابي ! قلت : " أهلا غابي ! اعتبريني صديقا إذن . هل لك في بعض الويسكي ؟ " وابتسمت الإيطالية بغنج . كانت جميلة جدّا . شعر أسود ، عينان داكنتان ذكيتان ، أنف دقيق فوق فم شبق . وجه لا ينسى بسهولة . حسدته والله ! كيف يمكن لامرأة كتلك أن ترضى بجرد أمرد ومخنّث مثله ؟ لعلّها لا تحبّه ، بل تتظاهر بذلك . لكن ، ما هي حقيقة علاقتهما إذن ؟ أين ومتى عرفته ؟ في بيروت أم

في مكان آخر ؟ قال لي إنها مراسلة صحيفة إيطالية . لا يمكنني تصديق أنّها تحبه . لقد راحت معه إلى طهران . ربّما تكون متعلّقة بأمواله . رجل أعمال يعني دائما رجل أموال لا تنتهي في أذهان النساء . وقد تكون تتجسّس عليه . جاسوسة ؟ غريب ! كيف لم يخطر ببالي هذا من قبل ؟ هل تكون لها يد في فشل الصّفقة التي عقدناها معه ؟ هل تكون دلّت الآخرين على مكان تسلّم السلاح ؟ جائز ! كل شيء جائز . كان المفروض ان نتحرّى في موضوع الإيطالية قبل الحكم على الرجل بالإعدام . هل يكون بريئا ؟ هذا ما قد يفسّر عودته المذهلة . لو كان لعب المقلب لما جازف بوضع قدميه في هذه المنطقة مرّة ثانية . لكنّ الإيطالية لم تعد معه . نقطة غامضة ! لماذا لم تعد غابرييلاّ ؟ لأنها المسؤولة عن العملية طبعا . يبدو هذا الأمر بديهيّا الى حدّ فظيع ! لكنّنا لم نفكّر في ذلك قبل الآن . عجبا ! لم يفكّر أحد منّا في هذا الاحتمال . لقد تعاقدنا مع الإيراني ، وذهبنا لتسلّم السلاح ، وفاجأنا سقوط الكتائب علينا من السماء . هم أيضا كانوا يريدون السلاح . وهذا منطقيّ لو كان صدفة . لكن كيف عرفوا المكان والساعة ؟ من الواضح أنّهم كانوا مستعدّين لتسلّم البضاعة أيضا . لقد جاؤوا بشاحنتين ، ووقعت المعركة ، وسقط بعض الرفاق قتلى ، وجرح آخرون ، وكانت كارثة . فرّت السفينة وفشلت العملية كلّها .

أمّا الإيراني ، فلم نعثر عليه في أي مكان . كأن الأرض انشقّت لتبتلعه . تبخّر في الهواء، ولم نره بعد ذلك أبدا . ثم علمنا فيما بعد أنه سافر الى طهران ، وترك لنا أحد رجاله لينوبه في قبض بقية المال . عمليّا ، لم يكن الإيراني محتاجا للبقيّة . فقد قبضها بشكل آخر من الكتائب وهكذا ضرب عصفورين بحجر واحد ، وفرّ هاربا ، ومعه السلاح والمال والإيطالية . أمّا الرجل الذي تركه ، فلم يكن يعلم بالمقلب طبعا . ولا شك أنه ترك للكتائب كبش فداء آخر . العملية كلها كانت واضحة الى حدّ الآن . لكنها لم تعد واضحة برجوع الإيراني الى بيروت وإعادة اتّصاله بنا ..... كأنّ شيئا لم يكن ! هل يستبلهنا الى هذا الحدّ ؟ لا ، لا ، لا . هناك نقطة غامضة في هذه القصّة . لماذا لم تعد الإيطالية ؟ ربّما ..... كان هناك اتّفاق بينهما على أن يعود وحده ويتظاهر بالبراءة لتسقط الشبهة عليها . بل ربّما اتّهمها صراحة أمامنا . سوف يقول إنها كانت تتجسّس عليه ، وهي التي باعت العملية للكتائب ، ثم فرّت. وكان لا بدّ من اللحاق بها ومطاردتها في كلّ مكان . لكنّه طبعا لم يجدها . أو يقول إنه قتلها ؟ وبأية حال لن يكون ثمّة شاهد على أيّ شيء . إنّها فكرة طريفة ! غير أنّ مشاكله الخاصّة لا تهمّنا . ولسوف يكون غبيّا إذا كان يعتقد أننا سنصدّقه بهذا السيناريو . نحن لم نتعاقد مع

الإيطالية ، بل ليست لنا أيّة علاقة بها أصلا . لقد كانت الصفقة بيننا وبينه ، ولا يمكن أن يتحمّل مسؤولية ما حدث أحد سواه ، لذلك لابدّ من إعدامه . إذن لماذا عاد ؟ هذا ما لا أفهمه . ابحث ، ابحث ، ابحث ، ابحث . لا يمكن أن أفهم الحقيقة إلاّ إذا قابلته وتحادثت معه . لكنه سيحاول إقناعي ببراءته ، وأنا والرفاق مقتنعون بعكس ذلك . لكنّني لن أقتله قبل أن أعرف الحقيقة . سوف نرى ما يقول ، وبعدها نقرّر . يجب أن أكون هناك في تمام العاشرة . لا يزال لديّ متّسع من الوقت .

" ... وقد خفّ رصاص القنص . إلاّ أنّ الوضع لا يزال متوتّرا ، وتشهد بوّابة السّوديكو حركة عبور محدودة ... "

– والله ما تنحل يا عمّي ! ثلاثون ألف سيارة وأكثر من خمسمائة ألف نفس كانت تعبر يوميا بوّابة السّوديكو الى المنطقتين . توقّفوا بعد أوّل رصاصة أطلقها القنّاصة ، وبعدها سقط أكثر من أربعين مواطنا بين قتيل وجريح في الأسابيع الثلاثة الأخيرة فقط . آلاف من السيارات انتقلت من بوّابة السّوديكو الى بوّابة المتحف والضاحية الجنوبية . وصار المتحف يستقبل يوميا ما لا يقلّ عن ثمانين ألف سيارة في الاتّجاهين . وبات الوصول من بوّابته الى شارع الحمراء ، أو من الحمراء الى قصر العدل أو الأشرفية يستغرق أكثر

من ساعتين نتيجة اختناق حركة السير . أما الطريق من كورنيش المزرعة الى المتحف ، فكورنيش النهر ، فتشهد نحو خمسة حوادث اصطدام يوميا على الأقلّ ... خي ! الله يكافىء من كان السبب !

وفكّر وضّاح وهو يلقي نظرة على وجه السائق المنعكس في المرآة الصغيرة التي فوق المقود : "هذا الرجل يشعر وكأنه قائد دبّابة وركّابه جنوده . ولكنّه قائد مهزوم . وهم يتقاسمون معه هزيمة لا يعرفون بوعِها من كوعها . إنّه يقود دبّابته في حرب خاسرة ولا يكفّ عن الثرثرة . بل ربّما تخيّل أنّه مطالب بإقفال الراديو ، وتعويض أنبائه بنشرة إخبارية من عنده . أمّا تحاليله ، فشيء خاص ! فهو غير مهتمّ بالأميركيّين والسّوفيات . ولا يعني له أيّ شيء ترشحّ اشتراكي لرئاسة الجمهورية الفرنسية . ولا همّه تدخّل الروس في أفغانستان ، أو الأميركان في الخليج . أو الفرنسيّين في تشاد . وهو لن يتوقّف عند محاولة الانقلاب الفاشلة التي استهدفت الملك الاسباني . ولن تعني له شيئا حرب السلفادور ، ولا إضراب عمّال بولندا .... كلاّ . إنّه يعتبر كلّ هذه الأمور سفاسف ليس إلاّ . ولا شكّ أنه يعتقد أن "الدّولة ... أو الدّول " مسؤولة عن خطف روحه وزهقها على عتبات بوّابات العبور بين المنطقتين الشرقية والغربية ، وأن هذه الحالة تدخل في إطار " حرب بوّابات العبور " !

بين تقاطع الطرق ، ارتفعت الحجارة والبراميل وصناديق الخشب ، وانتشرت الحواجز التّنكية والرّملية متعانقة مع أسلاك الهاتف والكهرباء المقطّعة ، وجدران المنازل المصابة بجدريّ الرصاص والقذائف . كانت السيارة تنسلّ من كورنيش المزرعة في اتّجاه الحمراء . وقال السائق :

– البارحة فقط ... والله العظيم ! كدت أقتل في زقاق البلاط ...

سأله أحد الرّكّاب :

– كيف ؟

– كنت أنقل في سيارتي أجنبيّا – أعتقد أنه صحافي – الى المنطقة الشرقية . وبوصولنا الى محلّة الباشورة ، من ناحية شارع رياض الصّلح ، فاجأنا رصاص القنص يتوزّع في كلّ مكان . فانبطح الأجنبيّ على المقعد الخلفيّ ، وقال لي : ارجع ولا تتقدّم ، فهل أنت مجنون ؟

قال أحد الركاب :

– عندما بدأت أحداث السّوديكو ، تذكّرت على الفور حرب الأبراج والفنادق ، وانتشار المتاريس وارتفاع أفواه البنادق والمدافع ، وإقامة الحواجز المسلّحة التي تخطف على الهويّة في كل مكان والنزول الى الملاجئ ، وانقطاع الكهرباء والماء والخبز ، واستعمال الشموع ... إنها حرب حقيقية من جديد هذه التي نعيشها منذ أسبوعين . لم يعد يغمض لنا جفن . الأطفال يهبّون من نومهم

مذعورين لدى سماعهم صدى إطلاق أية رصاصة ويقولون : يا ربّ ! أنقذنا .

قالت امرأة :

– بلدنا جميل ! لماذا لا يرحمونه ؟

– الله يكافىء من كان السبب !

– الصورة ما زالت ماثلة في ذهني : سيارة تعبر جسر فؤاد شهاب من المنطقة الشرقية الى الغربية ، أو العكس ، فيعاجلها القنّاص برصاصة لا ترحم . تنقلب رأسا على عقب ، ترتطم بالحاجز، يموت سائقها أو يجرح ، وتتحطّم سيارته . إنّها جرائم بربريّة لم يرتكبها حتّى جنكيز خان أو هولاكو ...

– الله يكافىء من كان السبب !

مسكين صابر ! وأبو هاشم ، وندى ! مسكينة ندى ! ندى ، ندى ! لماذا ماتت ندى ؟ أقسم أنني سأنتقم لها . أقسم أنني سأنتقم لهم جميعا . أطفال ! لم يكونوا سوى أطفال لم يعرفوا الحياة بعد . ماتوا دون أن يعرفوا شيئا عنها . ماتوا ليعيش هذا الإيراني اللّعين في الفنادق الفاخرة مع المومسات . لن أمهله . لن أعطيه فرصة الدفاع عن نفسه . سوف أقتله كالكلب . نعم، كالكلب . ولتذهب صفقاته الى الجحيم ! لن يحمل المال إلى هناك . لن يكون بحاجة اليه . لا ، لا . يجب أن أجعله يتكلّم . يجب أن يقول كلّ شيء ، ثم أعدمه . لا بدّ أن أعرف منه الحقيقة .

والإيطالية اللّعينة ، أين ذهبت ؟ ترى ، هل عادت الى بلادها ؟ لا بدّ أن أعرف أين راحت العاهرة ! إنها جاسوسة ! لا شكّ أنها جاسوسة. حين ابتسمت رأيت الدّهاء يلتمع في عينيها ، أما هو ، فغبيّ! لقد كانت تلعب به ، وهو يظنّ أنّها تحبّه غباء ! تحبّه ؟ لايمكن أن تحبّ سوى أمواله ، رجل مثله لا يحبّ ، المال هو السرّ . المال ! المال ! نحن مختلفون . الله يرحمهم ! صابر وأبو هاشم وندى. ندى ! آه ! ندى ! كانت تحبّ صابرا ، ولم يكن غنيّا . لم يكن يملك شيئا سوى سلاحه ، وإيمانه . آه ! لماذا نحن مختلفون ؟ وأبو هاشم ، وقصائده التي لا تنتهي . " سوف أقرأ لكم القصيدة الأخيرة يا شباب ! اسمعوا! ، اسمعوا القصيدة الأخيرة . كتبتها البارحة فوق المتراس . إي والله ! كتبتها تحت القصف . للتاريخ يا شباب ! اعلموا أنّها كتبت تحت القصف ، وتذكّروا هذا . للتاريخ أقول لكم يا شباب ! يا شباب، اسمعوا قصيدتي . 17 جويلية " لن ننسى ذلك التاريخ . وأنا كنت مع ريتا خوري ومراد حلمي في المستشفى ، ورأيتهم . أطفال الفاكهاني الذين أنقذوا بمعجزة من المجزرة . إنهم ليسوا كالأطفال . إنهم راشدون . ولدوا في الحرب ، ورضعوا حليب الحرب ، وعاشوا الحرب كما لم يعشها سواهم من أطفال هذا العالم الحزين . وكانوا يتحدّثون ، كانت ريتا تسألهم ، ومراد ، وهم يتحدّثون . وكان الأطباء

والممرّضون وأنا ...

– قبل أيّ شيء ... قال لي أخي ، الطائرات تسقط البالونات . قال لي أخي الصغير ، الطيران سيضرب . لم أصدّقه . أوّلا ، لأن الطيران يحلق دائما فوق بيروت ، ويخرق جدار الصوت ، لكنه لا يضرب . وثانيا ، لأنّي ذهبت مرّة مع خالي الى صيدا ، وشاهدت الطيران يسقط البالونات لكنه لم يضرب . فقلت لأخي : الطيران لن يضرب . ثم فجأة ، سقطت قذيفة في البناء المقابل لنا . وشاهدت بعيني أناسا يطيرون من النوافذ ويسقطون في الشارع . جمعت إخوتي لنهبط إلى الملجأ . صاروا يبكون . ( ماما ) لم تكن في البيت . ذهبت إلى السوق لتشتري لنا ثيابا للعيد . هبطنا طابقين ونحن ستّة أولاد . وفي الطابق الخامس ضرب البناء وصارت الدنيا عتمة ، وامتلأت البناية بالغبار . ولم نصل الى أسفل المبنى حتى اهتزّ البناء هزّة قوية ، وسقطت الطوابق على بعضها . صرخ الفدائيّون من الخارج : اهبطوا إلى الملجأ . فهبطنا ... ورحنا نتنفّس بصعوبة والطائرات تضرب . خفنا كثيرا . ثم جاء أبونا ففرحنا . وبعد قليل عادت أمّنا . قالت لنا انتظروا حتّى يذهب الطيران . ونحن خارجون بعد أن ذهب الطيران ، كنّا نركض . قالوا إن الطيران سيرجع ليضرب . كانت سيّارات الإسعاف تنقل الجرحى والقتلى . وجاءت الإطفائية قبل أن نخرج من الشّارع لتطفىء الحريق الكبير في

بناية رحمة ... كنا نمرّ بهم . بعضهم يتحرّك أو يصرخ ، والبعض الآخر كان هادئا . يمكن لأنه مات . كان فوق الكثيرين منهم الرّدم والحديد . لكن نحن ظللنا نمشي مسرعين . خرجنا بصعوبة لأن الشّارع كان مسدودا بالدّمار والسّيارات المحترقة ...

– أنا شاهدت الطائرة تلقي ثلاث قنابل . كانت المرأة العجوز تنشر الغسيل في ( الفيراندا ) . سقطت الجدران واشتعلت النار . المرأة صارت متدليّة إلى الطابق الرّابع . كانت تتمسّك بالدرابزين وينزف من قدميها الدّم . ثم سقطت إلى الشارع هي والدرابزين ... كانت تصرخ : اللّه ! . اللّه ! اللّه ! وأنا أتفرّج عليها ... وعندما كنت في بناء البغدادي . لمحت رفيقي . كنت أبحث عن مكان أختبىء فيه بعد أن هربت من الشارع . كان رفيقي ممزّق الثياب ووجهه أسود والدّم يخرج من كلّ مكان في جسمه ... مشى قليلا ، ثم سقط على الأرض بجانب الدّكان . كان فمه مفتوحا ... ناديته ، فلم يسمعني . ثم سقطت قذيفة وهبطنا إلى الملجأ ولم أعد أراه ...

– أنا رأيت في الطابق الأول عددا من الأطفال يخرج الدّم من أفواههم وأنوفهم وعيونهم ... ثم وصلت ( ماما ) إلينا ، ومررنا من فوق رجل ميّت . كان يخرج من ظهره الدّم . دخلت الحديدة في ظهره . ثمّ حملونا خارج الفاكهاني ...

– شاهدت ولدا يخرج الدّم من خاصرته ، وأولادا

كثيرين يخرج الدّم من شعرهم وعيونهم ... ومن آذانهم . وكان على أيديهم ووجوههم الغبار . وكانوا يبكون ... أخذوهم في سيّارة الإسعاف ... كنت ألعب معهم في البناية ... وأمّهم، يا حرام ! كانت في المستشفى ... صاروا يبكون وينادون : يا ماما ، يا ماما ! ...

– الطيران قصف ... أوّل صاروخ سقط قسم البناء نصفين ... ركضت ، ركضت . نزلت قنبلة مشتعلة ، وصارت الأرض تشتعل كلّها . ظللت أركض ، أركض . أينما ركضت تسقط القنبلة قربي . وصلت قريبا من البيت عند بناية البغدادي . رأيت أخوتي، وجوههم كلها دم ، وأيديهم ... وثيابهم مقطّعة . كانوا يبكون وعلى ثيابهم الدّم . دخلت البناية ، فرأيت رفاقي يصرخون . ثم سقطت قنبلة ، وصرخ واحد من بعيد : انزلوا إلى الملجأ ... بجانب بيتنا ، كان الحاج أبو محمّد نائما في الدكان ، عندما جاءت الطائرات ... ثم خرج يزحف وكله دم ... ورأيت بناية البغدادي ، سقط نصفها ... كانت عالية وصارت واطئة ...

– نحن لم نكن في البيت . كنت في المدرسة . جاءت خالتي لتأخذ أولادها ، ثم صارت المعلّمة تبكي ، ونزلنا إلى الملجأ . وجاءت ( ماما ) . الطيران قصف ، فتهدّم بيتنا كله . صار بلا سقف ، ووقعت حيطانه . لم يبق منه سوى غرفة واحدة . ابن جيراننا مات . كان يصلح لنا الملجأ . اسمه

منير . وماتت جارتنا أمّ عبد . دخلت الشظيّة في ظهرها . بعد أن هدأت الحال ، وذهب الطيران خرجنا . كلّ شيء كان يحترق . كانت سيّارات الإسعاف تنقل الشهداء . ورأيت سيّارة شحن كبيرة فيها ناس نائمون . ولم نكن نستطيع أن نتبيّن طريقنا . وعندما كنت أدخل إلى السيّارة لأهرب مع أقاربي ، لأنّهم قالوا إن الطيران سيرجع ، أغلقت الباب على أصابعي . أمّي أغمي عليها . كنّا في السيّارة الواحدة خمسة وعشرين فردا . الفدائيّون أخرجونا من الفاكهاني . جارتنا في الطابق الخامس سقطت هي والقذيفة معا إلى الشارع وهي تحمل ابنها ...

– الله يكافىء من كان السبب ! قال السائق .

وصمت الرّكاب هذه المرّة . وتطلّع وضّاح في ساعته . كانت تشير إلى الثامنة ، وعشر دقائق . وتوقّفت السيّارة في شارع فردان ، ونزل أحد الرّكاب . رآه وضّاح يبتعد بخطوات وئيدة ، ودارت العجلات من جديد .

كنت مع ريتا ومراد في المستشفى ، ورأيتهم . لم يعودوا أطفالا كالأطفال . لقد هرموا وحليب أمّهاتهم لا يزال بين أسنانهم بعد . أرضعوهم حليبا مرّا . لم يفطموهم بالجوز واللّوز كما يفطم أولاد الأسياد . فطموهم بماء الموت ، وكووا أجسادهم الطّريّة بالحديد والنار . ولن ينسوا ما عاشوا أشباح الدّمار . لن ينسوا إذا عاشوا ،

ولم ينقصفوا كصابر وندى ... وفي الليلة السابقة للغارة ، آه ! لو كنت أعرف ، لو كنت أعرف ، وأنا في ذلك الفندق غريب بين غرباء . لو كنت أعرف ، ماذا كنت أفعل ؟ سؤال لا يوجد أغبى منه . ماذا كنت أفعل لو كنت أعرف ؟ غبّي ! غبّي! أنا رجل أبله لأنّ هذا السؤال لا معنى له . تلك الليلة ، هل سكرت كثيرا ؟ لا أدري . كنت أحاول أن أنسى . كنت أحاول أن أتذكّر . لا أعرف ما كنت أحاول أن أفعل . لكنّ الصّدفة حملتني إلى "الكومودور" . ومشيت الى البار ، واتّكأت بكوعي على حافته المعدنية ، ورحت أجيل النظر في القاعة الصاخبة . كانت ملأى بالناس ، وكان بعضهم يرقصون على إيقاع الموسيقى التي تعزفها أوركسترا في صدر القاعة الطويلة . وكانت النوافذ الكبيرة المغلقة طيلة الشتاء قد فتحت ، والبعض قد خرجوا من القاعة ليجلسوا في الهواء الطلق حول حوض المسبح . كانت ليلة حلوة ورائقة . وكان المكان يبدو كأنه لا علاقة له بما يجري في بيروت . لم يكن الساهرون يحملون على وجوههم علامات همّ كبير . بل أغلب الظنّ أنهم لم يكونوا يؤمّون ذلك الفندق إلاّ رغبة منهم في نسيان همومهم ولو للحظات عابرة . وربّما كان بعضهم يتخيّلون ما أن يعتبوا باب القاعة أنهم يدخلونها مثلما يدخل الإنسان إلى حمّام ، بعد أن يخلعوا عنهم أثواب الحداد اليومي الذي يعيشونه . هل كان ذلك نوعا

مَن الهروب ؟ ليس مهمّا مطلقا ، فقد كانت تلك السّهرات الموسيقية الهادئة أحيانا ، والصاخبة أحيانا أخرى ، كافية لتجعلهم يعتقدون أن الحياة لا تزال متواصلة رغم كلّ شيء ، وأنّه بإمكان الإنسان أن يتكيّف حتّى مع أحلك الظروف وأشدّها مقتا . والتفتّ عندما لمست كتفي يده ، وسمعت صوته يقول :

ـ وضّاح عبد الهادي ! ... أنت لا تزال حيّا إذن ! ...

ـ مش معقول ! مراد حلمي ! أنت هنا ! اعتقدت أنك منفيّ في الطرف الآخر من أرض العرب .

وتعانقنا طويلا .

ـ أمّا أنا ، فقد ظننت أنّك ضائع في إحدى غابات أميركا اللاتينية ، وأن الأمزونيّات خطفتك إلى الأبد .

وضحكنا كثيرا ،وقلت له :

ـ إني لا أزال ضائعا في هذه الغابة ، والحمد لله ! لم أقع بعد في أسر القبائل المتوحّشة وراء المحيط . أنا واقع في أسر قبائل أشدّ توحّشا وفتكا . عافاك الله ! لكنّي مستغرب من وجودك في بيروت . فأنا أطالع صحيفتك باستمرار ، وقد قرأت لك أخيرا تحقيقا مطوّلا من المغرب الأقصى .

ـ لقد عدت منذ يومين ومعي ذلك التحقيق وغيره . كنت في جولة طويلة بين دمشق وباريس وبروكسال وآمستردام والدار البيضاء والجزائر

وطرابلس .

– فقط ؟ إنهم والله ( يدلّعونك ) في الجريدة .

– قصة طويلة . ولا كلمة ! لو لم أخرج من بيروت لما وجدتني الآن إلاّ في المقبرة أو في (العصفوريّة) .*

– أنت تمزح طبعا !

– أبدا وحياتك يا وضّاح .

وران عليه صمت حزين . فطلبت كأسي " جن – تونيك " من النادل ، وقلت له :

– تبدو أكثر حزنا من عادتك . ماذا حدث لك ؟

وأطرق مراد لحظة صامتا ، ثم قال :

– أنت لا تعرف كريستين ...

– لا . هل ... تزوّجت ؟

– كنت على وشك ذلك ... لكن ... في اللّحظة الأخيرة ...

وسكت مراد ، وراح يغرق كآبته في الشراب . ومرت لحظات ألم صامت ، ثم تابع يقول :

– جاءت متطوّعة للعمل في الصليب الأحمر . وفي المستشفى ، حيث أجروا لي العملية بعد إصابتي في ساقي بشظايا القنبلة التي تعرف ... تعرّفت عليها . كانت جميلة وبريئة . تصوّر ... رغم أنّني عشت في أوروبا سنوات عديدة ، فأنا لم أعرف أوروبية في مثل إنسانيتها . كانت فرنسيّة الجنسية ، وكانت هاربة من فرنسا ، هاربة من الشقاء الرّوحي الذي هربت منه أنا أيضا . وكان هذا ما يجمعنا .

* مستشفى الأمراض العقلية .

لقد وجدنا معا ذلك المعنى العميق للحياة الذي لم يكن بالإمكان اكتشافه إلاّ في أعسر الأزمنة وأشدّها وطأة على البشر ...

– إنّني أعرف ذلك الإحساس ...

– نعم . ولكنها قتلت ...

وأطرق كلانا صامتا . ثم سألته :

– متى كان ذلك ؟

– في شهر مارس الماضي .

– ألذلك سافرت ؟

– نعم . لم أعد أطيق هذه المدينة القاتلة . كنت على وشك الجنون . أردت الهروب من هذا الجوّ الخانق ... لأنسى .

– إنّني أفهمك .

ومرت برهة صمت . ووجدت نفسي أسأله :

– ألا تفكر في العودة أبدا ؟

– العودة إلى أين ؟

– إلى وطنك ... إلى تونس ...

– تونس ؟

وأفلتت منه ضحكة متشنّجة ، توقّفت فجأة مثلما بدأت . وعاد وجهه كئيبا شاحبا . ثم قال بصوت أجشّ :

– إسمع يا وضّاح . سوف أقول لك كيف جئت إلى بيروت ، ولماذا . ولكن ، لنذهب إلى تلك الطاولة التي في الزاوية ، سوف أحدّثك بكل شيء .

واتجهنا إلى الطاولة ، وجلسنا متقابلين ،

وطلب مراد كأسي " جن " آخرين ، وأشعل سيجارة ، ونظر إليّ طويلا .

كانت السيّارة قد دخلت شارع الحمراء منذ برهة ، وخفّف السائق من السرعة . وبمرورهم أمام رصيف مقهى " الأكسبرس "، أوقف وضّاح السيّارة ، وترجّل نازلا . واتّجه إلى المقهى الذي كان أغلب روّاده قد غادروه . كانت المقاعد والطاولات البيضاء التي على الرصيف فارغة أو تكاد . وخطا وضّاح حتّى وصل إلى الباب البلّوري ، ودفعه داخلا . لم يكن في المقهى سوى بعض الزبائن يتحادثون بخفوت . ولم ينتبه أحد إلى دخوله . جلس منزويا في ركن من المقهى ، مواجها الجدار البلّوري الذي يرى منه الشارع الغارق في عتمة الليل . كانت السيّارات قليلة . لقد جاءت الساعة التي تخفّ فيها حركة المرور، وتخلو الأرصفة سوى من المتسكعين وروّاد السينما وصالات " البيار" والقمار . شبك أصابعه ، ووضع مرفقيه على الطاولة . وأسند ذقنه إلى يديه ، وراح يحملق في الشارع . كان يبدو هادئا تمام الهدوء. وكان يشعر أن الوقت يتمطّى بلا انتهاء . وتطلّع في ساعته . لم تكن سوى الثامنة وخمس عشرة دقيقة . سحب علبة سجائره من جيبه وولع إحداها . جاءه النادل ، طلب كأس ويسكي بلا ثلج . أسرع النادل ليلبّي طلبه . التفت إلى البلّور . رأى صورته منعكسة فيه . شعره أسود قصير ، يبدو محلوقا منذ زمن وجيز ، جبينه متغضّن يحفره خطّان

أفقيّان ، عيناه السوداوان غارقتان في محجريهما تحت الحاجبين الكثيفين ، وباردتان كفصّين من الزجاج . في وسط الوجه أنف معقوف شبيه بمنقار نسر ، أسفله فم واسع تلتهم شفته السفلى الشفة العليا بما ينمّ عن عنف باطنيّ مركّز . وجه مثلثيّ لا يختلج فيه شيء ، كأنه قناع محارب قديم . ومع ذلك فهو لا يخلو من وسامة .

وتساءل : هل هذا وجه قاتل ؟ هل يمكن لمن يراني أن يحدس أنّني سأقتل رجلا في هذه الليلة بالذات ؟ لكن . هل أنا قاتل ؟ كلاّ ، لست قاتلا ، أنا ثوريّ ، إنني لا أقتل من أجل المال ، كالإيراني . أنا رجل مبادىء ، ولست تاجرا . هذا هو الفرق الأساسي بيني وبينه . هو يزوّدنا بالسلاح كما يزوّد به أعداءنا . وأحيانا يلعب لعبة قذرة ولا يهتمّ للضحايا . لكن سوف يكون الحساب في هذه الليلة . لقد جاء لأنّ مصيره قاده إلى هنا ، كما يقول مراد حلمي . إيه ! يا مراد . أين أنت الآن أيها الصديق ؟ لو تعلم كم أنا حزين في هذه اللّحظة . وأتذكّر كآبة تلك اللّيلة التي سبقت الغارة ، أتذكّرها بكلّ تفاصيلها ، ولايزال بإمكاني استعادة كلّ كلمة قلناها .

جاء النادل ، ووضع كأس الويسكي على الطاولة ، وسمع وضّاح وقع قدميه على الجليز وهو يبتعد . سمع ضجيج الزبائن الخافت . ورشف الويسكي ببطء ، وعيناه توغلان في اللّيل .

ـ كان ذلك أحلى زمان يا صاحبي ، زمان طوفان الضحك ، وطوفان الكتب ، وطوفان الخمر والحشيش ، وطوفان البنات والشبق ، وكنّا شبيهين بأبطال روايات مستهترة ، مسكونين بهاجس الحياة المحمومة ، كأن اليوم الذي نعيش هو آخر أيام حياتنا ، ولم يكن الوقت الذي يقيّد سائر الناس يعني لنا شيئا ،مع أن الساعات كانت تدق ، والقطارات تصل في مواعيدها ، والطائرات تقلع متأخّرة أحيانا ببضع دقائق عن ميقات إقلاعها ، مسبّبة مناوشات لا تنتهي بين المسافرين والمسؤولين عن شركات الطيران ، وكانت البواخر تعبر البحر البعيد ، محمّلة بالمهاجرين وأمتعتهم الغريبة ، من ثلاّجات رخيصة ، وسيّارات متربة ، وتلفزيونات ملوّنة ، وأحذية ، وألبسة ، وأصباغ ، وحلي ، وكلّما كثرت الأمتعة وتنوّعت ، ارتفع شأن المهاجر ، وزاد نفوذه بين أهاليه الذين كانوا يستعدّون لاستقباله بالزكرة والطّبلة والزغاريد والدموع والمناديل ، وبآخر ما وصل من بخور مكّة والمدينة في حقائب الحجّاج ، والجرائد كانت تخرج كلّ فجر من المطابع الرماديّة ، وحبرها لمّا يجفّ ، وأناملنا تسودّ بحروفها حين نطالعها في مقاهي الأسواق الصغيرة ، مقاهيّ شارع "موفتار" ، ذات الطاولات الرخامية ، والخشب ذي الرّائحة العتيقة ، رائحة سنوات الجنون فيما نشرب على الرّيق القهوة الساخنة وكأس" الكلفادوس" الذي يتبعها ، وفيما

يربض كلب أبلق من جنس" الايبانيول " بجانب المشرب الخشبي ، محدّقا في الباب البلّوري الذي دفعه كهل أحمر الوجه ، أبيض الشعر ، صائحا بصوته الأبحّ : "صباح الخير! " للمرأة التي تقف خلف المشرب ، والتي تبادر بوضع كأس مترعة بالخمرة البيضاء أمامه ، فيفرغها دفعة واحدة في جوفه ، ويمضي في حديث عن ارتفاع الأسعار الرهيب ، الذي لم تشهد مثله فرنسا منذ الحرب العالمية الثانية ، ويفرغ في جوفه كأسا ثانية ، ويتحدّث عن سقوط الحصان الذي راهن عليه يوم السبت في سباق الخيل ، ويشرب كأسا ثالثة ، ويحرّك الكلب الأبلق رأسه ، وينفتح الباب البلّوري ، فتدخل " جرمان " يصحبها كلبها الصغير الذي يتشّممه الكلب الأبلق ، وقد عرف فيه صديقا قديما كانت له معه مغامرات وحكايات شيّقة في عهد ما ، وتجلس جرمان، وصباح الخير ، وكيف الحال ، ولم نرك منذ يومين ، وآه! من هذا البرد اللّعين ، وإنه شهر نوفمبر، والراديو يقول إنّ اليوم سيكون ممطرا ، وتتحرك صاحبة المقهى من وراء مشربها لتقدّم القهوة لجرمان ، وتضع جرمان السّكر في فمها على عادة أهل الشمال الفرنسي ، وتشرب القهوة في جرعات ثلاث بيدين راجفتين ، وتعيد الفنجان إلى الطاولة ، فيما صاحبة المقهى لا تزال واقفة تلاطفها ، وتحادثها عن مسلسل تلفزيوني وجريمة شنعاء في المترو ، ويتلقّف الكهل ذو الوجه الأحمر الكرة ، ويصيح

بصوته الأبحّ : " ها ! لم تكن الأمور لتحدث على هذا النحو في زماننا ... " ويعطس عطسة ، فيتوقّف مكرها عن الحديث ، ويحدّق فيهما بعينيه الصغيرتين المستدمعتين ، منتظرا ، و " ... ها ! تشوم ! ... عفوا ! ... لماذا ندفع الضرائب ؟ " ويحرك الكلب الأبلق رأسه ، ويدفع الباب شاب وفتاة يظهر من هيأتهما أنهما طالبان ، ويجلسان إلى إحدى الطاولات المنزوْية واضعين الدفاتر على المقعد الشّاغر ، وتترك صاحبة المقهى جرمان والكهل يواصلان حديثا لا ينتهي ، وتتّجه إلى الطّالبين ، ثم تدور نحو المشرب لتحضر لهما البيرة والقهوة ، ويمضي الطالبان في حديث خافت ، ومن الباب البلّوري كنّا نرى الناس يمرّون ملتفعين بمعاطفهم ، مسرعين في مشيهم ، وكانت السوق تزداد حركة وضجيجا ، وأسراب من الحمام الأبيض تطير هنا وهناك تحت السحب الرمادية الخفيضة ، وتتعالى أصوات الباعة ، وتلسعنا ريح باردة كلما انفتح الباب ، فنفرك أيدينا أو نضعها تحت أفخاذنا على المقعد طلبا لشيء من الدفء ، ونطلب مزيدا من " الكلفادوس " وننكبّ على الجرائد الفرنسية والعربية ، باحثين عن أخبار تلك البلاد التي تركناها وراء البحر البعيد قبل كل الأخبار الأخرى ، ولم يكن الأمر هيّنا حين لا نجد شيئا عن بلادنا في الصحف ، أو حين لا نعثر سوى عن نبأ صغير لا يشفي الغليل في زاوية لا تكاد ترى من زوايا الصحيفة ، كنا نتلقّى

ذلك كشتيمة نصمت عنها مذعنين ، فكأنّ ذلك النبأ الصغير لم يكن في بحر كلّ تلك الأنباء الكبرى عن الانقلابات والاغتيالات والانتفاضات والمحادثات والمعاهدات والتكتّلات والاحتشادات والسقوط والنهوض والمراسم ، سوى الحجم الحقيقي لجغرافية بلادنا التي لا تكاد تبرز معالمها على سطح الكرة الأرضية ، ومع ذلك ، فلقد كان مجرّد العثور على نبأ مهما كان حجمه يملأنا غبطة وانشراحا ، حتّى لو لم يكن فيه ما يسرّ بشكل خاص ، إذ كان ذلك يشعرنا بوجودنا ، وبأننا لسنا منفيّين تماما ، بل يمكننا في كل لحظة البرهنة على هذا السرّ الذي نحمله معنا ، مرتسما على وجوهنا ، ومختلجا في نبضنا ، وجاريا في شرايينا ، بأنّه الدم غير المنفصل عن الأرض الأولى والأخيرة ، رغم حواجز البحر وجبال الآلب ومسافات السماء ، ولم تكن أحاديثنا تنتهي في المساءات الخريفية الباردة ، حيث نلتئم في المقاهي المجاورة للجامعة ، فنقرأ الشعر العربي ، ونتحدّث عن أحوال البلاد والعباد ، كأنّنا نواصل حديثا بدأناه في مقهى سيدي بوسعيد ، بين فناجين القهوة العربية ، والشاي المنعنع ، ووسط دخان الشيشة ، وضجيج لاعبي " الشكبة " ، دون أن نعي تماما أن الجالسين في المقهى لا يفهمون لغتنا ، وهم بأية حال لا يبالون بنا ، ولا هم ينتبهون إلينا ، ويعلو صخبنا كلّما تتابعت الكؤوس، ويحمى

نقاشنا ، وإذّاك يلتحق بنا الذين انصروا للعب "الفليبر" في زاوية أخرى من المقهى ، ونراهن على سقوط الوزارات ، وزوال الدول وانتهاء الحكومات ، ونفهم ونتصوّر ، ونحلّل ونحذّر، ونبوّب وندرج ، ونرفع ونحطّ ، ونبني ونهدم ، وها هي الثورات تندلع ، والبلدان تشتعل ، والحروب تدقّ أبواب المدن ، والشعوب تزلزل أرجاء الأرض ، وها هي الأنظمة الرأسمالية تحتضر ، والأزمات الاقتصادية تتوالى ، والغرب يتدهور وينجرف إلى الهاوية ، وها هي التّنبوءات العلمية تتحقّق ، والدورات التاريخية تجاوب أحلامنا ، ونبني الآمال العريضة ، ونرى الأرض تزهر من جديد بعد إسقاط رموز الطغيان والاستبداد ، وتنبثق أجيال لا تعرف الاستغلال وتجهل الشرّ والخطيئة ، ويبدأ عصر جديد من السعادة لجميع الناس ، ثم ننهض وننصرف كما جئنا ، ونتوزع في المدينة الكبرى ، وتأتي روعة الليل ووحشته ، وتأتي ساعة الحسابات الصغيرة والكبيرة ، لكن لا يا صاحبي ، نقول لا ، لننس كل شيء ، لننس العالم وأحزانه ، لننس شقاء الأيّام وعنف الغربة والمنفى ، ونغرق في دوّامة الليل الباريسي، سوف نعود يوما الى قواعدنا سالميْن ومريرين، مثل عودة الطّيارين بعد هجوم جوي في حرب خاطفة ، ونستسلم للّذة ، وندخل المدينة الكبرى من بوابتها الحمراء ، نستكشف متعة الإثم ، ومزيدا من السكر، مزيدا من الموسيقى ، مزيدا من الرقص ، مزيدا من

الخدر ، ولنطلق شيطان الجسد من قمقمه ، ولتشتعل الأضواء ، حمراء ، خضراء ، زرقاء ، صفراء ، ولتدمدم الطبول ، ولتدندن الصنوج ، ولتصرخ القيثارات الكهربائية ، ويا عنف يا عنف يا عنف يا عنف يا عنف يا عنف يا عنف يا عنف يا عنف يا جوهر الأشياء ، يا لذتي وأنا اخترق جسمها من الطرف الى الطرف ، وهي تتوهّج وتشعّ وتتلألأ ، وتصرخ ، سكرى ومتوثّبة كالقطّة المتوحّشة ، وتموء وتتلوّى وتتوجّع ، واقفة ، راقدة ، مقبلة ، مدبرة ، شرقية ، غربية ، بيضاء وسمراء وصفراء وحمراء ، وما همّنا في الألوان والأجناس ،ماهمّنا في الأصول والفروع ، ما همّنا في الجغرافيات والحدود ، ما همّنا سوى اللحظة ، واللحظة ، ولاشيء سوى اللحظة ، ما دمنا لا نعرف شيئا أكثر أو أقل من اللحظة ، وما دامت اللحظة تلخّص كل حياتنا الماضية والآتية ، وحين يطلع الصباح كئيبا ، فارغا ، مفزعا ، حين يطلع الصباح يا صاحبي ، ننقلب على وجوهنا ، دافنين العينين في المخدّة ، وفي الرأس ضباب ، وبقايا حلم ، وذكرى ليلة لا تمحّي ، ونسأل : ترى أيّ صباح هذا ؟ إنّه ليس ككل الصباحات ، كان صباحا لئيما ، رهيبا ، قاتلا ، كان صباح الدّم الذي ينبجس على صفحات الجرائد ، صباح أربعمائة قتيل وعدد لا يحصى من الجرحى في بلادنا ، صباح الدّبّابات والطوارىء ، " هل سمعتم ؟ "، " نعم "، " ماذا حدث ؟ "

" إضراب عام "، " من المسؤول عن المذبحة ؟ "
" يوم أسود ، حداد ، احتجاجات ، عرائض ، أعلام
في بهو الجامعة ، اعتصام ، تجمّعات ، تنديد ،
أناشيد وطنية ، كلام ، خطابات ، قرف ، زعماء
مضحكون يتنازعون كرسي الخطابة ، ضربات ، صراخ،
فوضى ، " أنت ستاليني "، " أنت بورجوازي " ،
" أنت وغد "، " يا رفاق ، اسمحوا لنا حقا! "،
" اسكت "، " الزعيم يتكلم "، " من هو الزعيم؟ "
" لماذا هو زعيم ؟ "، " ماذا يقول ؟ "،" ماذا
يقول ؟ "، إنّه ينددّ "، " وما حاجته إلى ذلك ؟ "،
" هل أنت غبيّ ؟ "، " أريد أن أفهم "، " صه!
لا يتحدّث أحد "، " ولكنّه ليس الزعيم ، بل أنا "،
" اسكت يا فاشستي "، " يا رفاق ، اسمحوا لنا "،
"يا ستاليني "، " يا فوضوي "، " يا تروتسكي "،
" يا عميل "، " يا ماوي "، " يا يميني " ،
" يا رجعي "، " يا حمار "، " من المسؤول عن
المذبحة ؟ "، " الحزب" ، النقابة "، " الدولة" ،
" الجواسيس"، المخابرات "، " السوفيات " ،
" الأميركان "، " الشرطة "، " الجيش " ،
" الميليشيا "، " الشيوعيون "، " الاخوان
المسلمون "، " لم أفهم "، " من المسؤول ؟ " ،
" أنا "، " أنت"، " هو "، " هي "، " هما " ،
" هم "، " هنّ " ، " ليسقط الخونة "، " حماة
الحمى يا حماة الحمى ... "، " ماذا به ؟ " ،
" ضربوه "، " لماذا ؟ "، " ادعى أنّه الزعيم! "،

" يا رفاق ، يا رفاق ، الناس في بلادكم يتساقطون كالذباب ، وأنتم هنا تتنازعون كرسي الزعامة ؟ "، " معه حقّ "، " القاعة ملأى بالكراسي ! "، " اسكت ، هذه سياسة ، أنت لا تفهم ! "، وماذا أقول لك بعد يا صاحبي ؟ كانت تلك بداياتنا العنيفة والمشاكسة ، وكنّا نحاول أن نربك العالم أكثر من محاولتنا فهمه ، لم يكن لدينا متّسع من الوقت للتفكير ، بل كانت ردود فعلنا أشبه ما تكون بدفاع الطريدة عن نفسها إزاء الوحش الكاسر ، بكلّ ما يتّسم به هذا الدفاع من رعونة ، وخوف مبهم من الموت ، ولقد دخل الموت حياتنا فجأة ، كأنّما عن غير قصد ، أو كأنّما هو يعتذر غن اقتحامه عالمنا الخيالي البريء ، وكان لهذا الاقتحام المرعب وجه لا مثيل له في ذاكرتنا ، ورغم أنّنا كنّا نسمع عن المجازر التي تحدث هنا وهناك في العالم الذي حولنا ، وبالرغم من مناداة بعضنا بالثورة المسلّحة ، وبالعنف والتمرّد الدامي ، فلم يكن ذلك في الغالب سوى من قبيل التبجّح ، ولم يكن العنف الذي أفقنا لنشهده في ذلك الصباح ، مرسوما بأحرف دامية على أعمدة الصحف ، سوى عودة فظّة وشديدة إلى واقع رهيب نسيناه أو كدنا ، لفرط انصرافنا الى مناقشات ومماحكات نظرية ، لا تفضي إلى غير الحلم . هكذا بدا لنا الحلم بعيدا ، بقدرما بدا لنا الواقع كئيبا مفزعا . كانت تلك هي

الارتجاجة التي قادت بعضنا ، ـ وأنا منهم ، ـ من أروقة الجامعة ، إلى الأراضي الملغومة ومن ثرثرة المقاهي إلى أزيز المدافع وصفير القنابل في شوارع بيروت الملتهبة ومخيّمات الثورة الفلسطينية . عمّ كنّا نبحث ؟ ولماذا كان للعنف هذا البريق المغناطيسيّ الوهّاج الذي يخطف الأبصار والقلوب ؟

وتوقّف سيل الكلام فجأة . وأشعل مراد سيجارة أخرى ، وراح يمتصّ الدخان بشراهة وينفثه من أنفه وفمه ، شارد الهيئة ، حالما . كان وجهه كلّه ينطق بالبلبلة وبالألم ، وكان فريسة اضطراب لا حدّ له . وطلبت كأسين آخرين ، وعدت أتفرّس فيه صامتا ومنتظرا بقية الحديث . وعاد يقول بعد لحظات :

ـ وها أنا أمامك الآن في هذه المدينة المشتعلة وفي قلب هذا العنف الجوهري ، والاعتباطي أحيانا ، كأنه القضاء والقدر الذي لا رادّ له ولا مفرّ منه ، أو كأنه المصير الذي كان لابد أن نصله ، ولم يكن بميسورنا الاستغناء عنه . ها أنت ترى مدى مرارتي وحزني في هذه اللحظة يا صاحبي ، وتسألني بعفوية ، دون أن تدرك ما يثيره سؤالك في نفسي الممزّقة ... ألا أفكّر في العودة؟ وأنا الذي لا يعرف حتّى ما سيفعله لدى خروجه من هذا المكان الآن ... كيف تريدني أن أعرف إن كنت سأعود أم لا ؟ وما الذي سأجده هناك ممّا لم أجده هنا ، ولا في أيّ

مكان آخر ؟ أليس الشّقاء هو الشّقاء في كل مكان ؟ أليست المأساة هي المأساة ، كأنّها موجة واحدة تمتدّ عبر العالم ، من شرقه إلى غربه ، ومن شماله إلى جنوبه ؟ هل تراني إذا عدت إلى تونس سأجد فيها الراحة ورغد العيش والسعادة الأبدية ؟ وأن أكون هنا ، أو في تونس ، أو حتّى في القطب الشمالي ، هل يختلف الأمر باختلاف المكان ؟ لا ، يا صاحبي . إنّ ما يدفعنا هو شيء أقوى من أن نقاومه ، وما يقع لا يمكن لنا دائما السيطرة عليه ، أو حتّى منع وقوعه ، إنّ شيئا مبهما في داخلي يقودني كلّ يوم خطوة جديدة نحو المجهول . ذاك ما أعرفه وأعتقده . أما الباقي ، فغير مهمّ على الإطلاق ، غير مهمّ أبدا .

وصمت مراد من جديد ، ولم أقل شيئا . أطرق كلانا غائبا في أفكاره . وبقينا نشرب وندخّن بصمت حزين ، والقاعة من حولنا تضجّ بالموسيقى والبهجة وضحكات النساء الأنيقات . وقلت له :

– إنّني أفهمك جيّدا يا مراد . وأعتقد أننا الأثنين من فصيلة واحدة ، وإن كانت الأمور بالنسبة لي أقلّ تعقيدا ، وأكثر وضوحا . فأنت يسوقك دافع غامض ، وتبحث عن معنى ما لحياتك ، قد تجده ، كما قد لا تجده . إنّك مغامر بالغريزه ولا يمكنك تغيير نفسك ، ولا يمكن أحدا تغييرك . هكذا ولدت وهكذا تعيش ، وهكذا ستموت يوما ، ولكنّ المعنى الذي تبحث عنه ، وتعاني من أجله

كل هذه المعاناة ، ربّما لم يكن بعيدا عنك يا صديقي ... ربّما كان في أعماقك ، وليس أبعد من ذلك ، لكنّك لا ترتاح له . إنّك لا ترتاح لنفسك يا مراد ، لأنّك كلّما اقتربت من أعماق ذاتك ، شعرت بخطر غامض يدفعك إلى الهروب دوما إلى الأمام ، دوما إلى مكان آخر . إنّك ترحل باستمرار ، طلبا لشيء لا يمكن أن يمنحك إياه السفر . لذلك تشعر بالشقاء ، وتظلّ تعاند .
إنّك مكابر وعنيد يا صديقي . واسمح لي أن أحدّثك بالصراحة نفسها التي حدّثتني بها ، لأنّ ما يوجد بيننا هو رابطة لا يمكن لشيء أن يفكّها ، إنها أخوّة السلاح الذي حملناه معا في خندق واحد ، لنقاتل عدّوا واحدا ، ونتحدّى الموت والقدر. وهذا ما قد يولّد فينا شعورا بالقوّة ، إنّه نوع من التفوّق على الموت ، لكنّه تفوّق زائف . أنت تعرف ذلك الإحساس بالنشوة الشبيه بالسكر ، بعد كلّ معركة ننتصر فيها أو نلحق بالعدو خسائر فادحة ... ذلك الإحساس بأنّنا أقوياء إزاء الموت ، وبأنّ مصيرنا بين أيدينا . إنّه إحساس رائع حقا ، ولكنّه عابر أيضا ، إذ أنّنا نكتشف ونحن في أوج نشوتنا ، أنّ رفاقا لنا استشهدوا ، أو جرحوا ، أو وقعوا في الأسر . انذاك ، نشعر بحجمنا الحقيقي . نحن لسنا آلهة ولا شياطين يا صديقي ، إننا بشر . نقوى متى اجتمعنا ، ونضعف متى تفرّقنا ، وانعزل كلانا عن الآخرين .

لقد عرفت مرّة أشدّ أنواع العزلة ، وأكثرها وطأة على النفس ، عندما كنت أقوم بعملية منفردة ، تطوّعت لها دون أن يجبرني أحد على ذلك . هل تدرك معنى هذا ؟ ورغم أنني كنت أومن بفعلي كلّ الإيمان ، فلقد شعرت لحظة بالتردد ... وعزوت ذلك إلي الجبن . وكم خجلت كلّما فكرت في ذلك اليوم . إنّني لست قاتلا محترفا يا صديقي،وإطفاء الحياة في عينين بشريتين تنظران إليك ليس بالأمر السهل . صحيح أنها كانت عمليتي الأولى ، لكنني لم أشعر أبدا بالندم على ما فعلت . إنني مخلص للثورة . الثورة هي حياتي ، ولست بحاجة للبحث عن معنى خارجها ، لأنّني أستمدّ منها قوّتي وصبري على العيش في كل الظروف . إنّني أحبّ الطعام الجيّد ، والشراب الجيّد ، والسيكار الجيّد ، والأحذية والألبسة الجيّدة ... نعم ، إنّني أملك ذلك الحسّ الأبيقوري للأشياء . لقد أعجبت دوما بأبيقور ، كان انسانا جيّدا ، أحب الحياة الجيّدة ، لكنّ الإغريق ترجموه على الشاكلة التي تعرف ... أحبّ حفلات الرقص أيضا ، المسرح ، وخاصة الكلاسيكي . غير أنّي لا أحبّ تملّك الأشياء . ما أملكه لي وللآخرين . لكنّني أيضا في لحظة ، أتخلّى عن متعي كلها في الحياة في سبيل القضية ، في سبيل الثورة . الثورة بالنسبة إليّ هي الشراب الأقوى . وأحبّ النساء أيضا ، الحياة الحلوة أعني ، وليس الجنس فقط . وأنا أستطيع أن أحبّ أكثر من امرأة

في وقت واحد ، إنّني أتناول الحبّ بسهولـــة كأيّ تلميذ مدرسة كبير ...

وجرع وضّاح جرعة طويلة من الويسكي ، ملتفتا الى الباب الذي دفعه رجل وامرأة أنيقا الهيـأة . وتبعهما برهة بنظره ، حتّى جلسا في زاوية أخرى من المقهى ، وجاءهما النادل مسرعا . وفكّر أنهما بلا شكّ زوجان سعيدان ، خرجا للسهر في السينما أو في المسرح ، وجاءا ليشربا قهوة بانتظار انفتاح أبواب قاعة العرض . وتنهّد وضّاح . أيّ فرق بينه وبينهما ! أيّة مسافة ! شيء كالأرض والسماء .إنهما في كوكب ، وهو في كوكب آخر ، مع أنّ مدينـــة واحدة تجمعهم . مدينة واحدة لأنماط مختلفة من البشر ، منهم الطبيب ، ومنهم المحامي ، منهم الصحافي ، ومنهم الشحّاذ ، منهم الوزير ، ومنهم اللصّ ، منهم التاجر ، ومنهم المجرم ، منهم الذئب ، ومنهم الخروف ، منهم الأسد ، ومنهم الضّبع ...

هي الغابة ، منذ آدم وحواء ، ولا شيء تغيّر ، سوى أنهم الآن يسكنون العمارات عوضا عن المغارات ويحملون المسدّسات بدلا عن الهراوات ، ويلبسون الحرير والبنطلونات عوضا عن الجلود ، ومـا زال الكبير منهم يفترس الصغير ، والدم هو الدم ، والرجال هم الرجال ، والنساء هم النساء . لكنّ الذي يقتل ، هل يختلف ؟ كلاّ ، إنّه لا يختلف ، إنّه يقتـل وحسب . وهل يسأل الذي يموت لماذا يموت ؟ كلاّ ، إنّه يموت وحسب . وامتدّت يده آليّا لتتحسّس

الجسد المعدني البارد الرّابض في جيبه . وتذكر تلك الليلة ، والخوف المبهم الذي سيطر عليه . كانت تلك هي العمليّة الأولى من النوع الخاصّ . وكان عليه أن يقتل أحد الجواسيس وينتزع منه وثائق بالغة الأهمية . كانت المهمّة دقيقة جدّا ، إذ أنّها ستتمّ في عمارة ذات شقق مفروشة تسكنها شخصيات مهمّة . وكانت العمارة هي المسمّاة " وايت بالاص" في منطقة الحمراء ، بقلب بيروت الغربية . وكان عليه أن ينفّذ المهمّة بطريقة صامتة حتّى لا تحدث أيّة فضيحة في الصحف .

أحسّ وهو ينعطف في الشارع الفرعيّ المفضيّ إلى شارع الحمراء لسعة برد ،فرفع ياقة "ترنشكوته" ، وعجّل خطواته . كان يريد أن ينتهي من المهمّة بسرعة . وبعدها يمكنه الدخول إلى أقرب مشرب وطلب قدح كونياك أو ويسكي . واعترته رجفة ، أحسّ بها تسري على طول عموده الفقري ، فقطّب حاجبيه وكزّ أسنانه . وفكر لحظة في الدخول إلى الفندق الذي يقع في طرف ذلك الشارع لشرب كأس ، فقد بدأ يشعر بجفاف في حلقه ، وأسرع خطواته . لكنّه قبل أن يصل إلى الفندق تخلّى عن الفكرة ، لا يجب أن يراه أحد في هذه الساعة . بعد العمليّة لا بأس ، لكن قبلها مستحيل . عليه أن يحافظ الآن على هدوئه واتّزانه ، فلقد بدأ يقترب .

تطلّع برهة في ساعة معصمه ، الثامنة وخمسون دقيقة . سوف يصل إلى " وايت بالاص" بعد خمس

دقائق ، وفي الساعة التاسعة بالضبط يكون كلّ شيء قد تمّ . إنّها الآن مسألة دقائق . أخذت دقات قلبه تتسارع . ما هذا ؟ هل يجبن في النهاية ؟ هل هو من هذه الفصيلة ؟ هل يرهبه القتل إلى هذا الحدّ ؟ كلاّ ، لن تكون هذه هي المرّة الأولى التي يقتل فيها . ألم يحارب في الجبهة ؟ في الدامور، وفي النبطية ، وفي صيدا وصور ؟ لكن كان ذلك مختلفا ، لقد كان مع الجماعة . ومع الجماعة لا يحسّ الإنسان لدى الضغط على الزناد أنه يقتل حقا . لقد كانوا يدافعون عن مواقعهم ضدّ العدو الصهيوني ، وكانت بينهم لحمة أقوى من الموت ، وأقوى من الحياة ، وأقوى من كلّ شيء . لم يكن لديه هذا الإحساس القاهر بالوحشة الأمر الآن يختلف إنّه وحده . ما من صديق يسعفه بالتشجيع إذا انهار ، ولا عين تحنو عليه . وحده ، وحده ، وليس بينه وبين ضحيته سوى مسافة خطوات .

وها هو يجتاز شارع الحمراء بسرعة ويدخل شارع السادات ، إنّه يقترب . وهذا الشعور القاتم بالعزلة الذي يتنامى ويحتدّ ، وهذه الضربات المجنونة في قلبه ، كأنه هو الذي سيموت . غريب! لم يعرف هذا الإحساس مطلقا ، حتّى حين كانوا يهجمون على خطوط العدوّ بالقنابل والرّشاشات ،وحتّى حين أصابته شظايا قذيفة اسرائيلية في صور ، وسقط مغشيا عليه ليفيق في المستشفى ، لم يعرف أبدا هذا الإحساس القاتل بالوحشة ، هذا الإحساس

الرهيب . وفي لحظة فكّر : إنّه الخوف ! وتوقّف . التفت يمنة ويسرة ، كانت السيّارات رابضة على جانبي الشارع ، المارّة قليلون ، ومن نافذة في الدور الأرضي من العمارة التي على يمينه ، كانت تتناهى إليه أغنية :

" يا دنيا يا غرامي
يا دمعي يا ابتسامي
مهما كانت آلامي
قلبي يحبّك يا دنيا ... "

وأحسّ كأنّ هذه الأغنية نشاز في وجوده بأسره ، مع أنّه لو سمعها في لحظة أخرى لطرب لها كلّ الطرب ، وشعر بالحاجة إلى سيجارة ، فسحب علبته من جيبه ، وتناول سيجارة . كانت يداه ترتجفان. عجبا ! هل وصل إلى هذا الحدّ ؟ وضع السيجارة بين شفتيه . أعاد العلبة إلى جيبه بحركات آلية . سحب الولاعة وأشعلها . كان لا يزال واقفا ، كأنّما أفكاره كلّها تعطّلت ، كأنّما فرغ ذهنه وتبلدت أحاسيسه تماما . فجأة ، نزع السيجارة من فمه وقذف بها بعيدا ، ثم تنفّس بعمق هواء الليل البارد ، واستأنف سيره ، كأنّ قوة خفية كانت تدفعه إلى نهاية محتومة .

واستدار مع المنعطف . إنّه الآن يرى عمارة " وايت بالاس" رابضة بهيبتها الاسمنتية البيضاء في قلب الميدان الذي يتوسّط الشارع ، وحولها السيّارات . وسار نحوها دون أن يسرع خطاه .

وما هي سوى لحظات حتّى بلغها .

دفع الباب البلّوري على مهل . كان الحارس نائما خلف مكتب الاستقبال . هل يوقظه ؟ كلاّ . نظرة سريعة إلى رقم 27 في لوحة المفاتيح الجدارية . لم يكن المفتاح هناك . إذن هو في الشقة . وخطا نحو المصعد ، وضغط الزر . انفتح الباب . دلف داخل القفص . انغلق الباب . ضغط الزر . الدور الثالث . بدأ المصعد يزخف إلى فوق بصمت . أخرج المسدّس وركّب كاتم الصوت . أعاده إلى جيبه . ألقى نظرة مواربة على المرآة ، كأنه يتوجّس رؤية خياله . كان وجهه شاحبا جامدا ، وعيناه باردتين لا تختلجان . توقّف المصعد . انفتح الباب الأوتوماتيكي . خرج إلى الرواق . في السقف ، كان قنديل كهربائي يرسل نورا ضئيلا . التفت باحثا بعينيه عن الرقم 27 . كان الباب قبالته في طرف الرواق . سار بخطوات وئيدة على السجّاد الأحمر الطويل . وقف أمام الباب . أنشأ يتنصّت . لم يسمع أية حركة . هل يكون نائما ؟ في هذا الوقت ؟ تطلّع في ساعته ، التاسعة إلاّ دقيقة . رفع يده اليسرى بأناة وطرق الباب . كانت كلّ أعصابه متحفّزة ، وكانت يده اليمنى تقبض على المسدس في جيبه . لم يسمع أيّة حركة . ترقّب قليلا ثم طرق مرة أخرى . سمع حركة تقترب شيئا فشيئا . توقّفت الحركة أمام الباب . إنه يكاد يسمع تنفّسه . صمت شامل ، ثم :

ـ من ؟

فكّر بسرعة ، لو صمت سوف يثير بذلك ريبته ، ولا شكّ أنه مسلّح . اذن ،لابد من الخداع . قال :

ـ أنا أبو ماهر ...

قال الآخر :

ـ أبو ماهر ! ؟

مرّت برهة من الصمت ، ثم انفتح الباب ببطء ، وأطلّ من الشّقّ وجه كبير بأنف ملاكم ، وعينين قلقتين . كانت كتفاه عريضتين ، وكان يلبس منامة زرقاء وهو حافي القدمين ، لم يكن يحمل سلاحا ، وبدا كأنه انتبه فجأة إلى الخديعة ، فضاقت عيناه وهو يسأل :

ـ من أنت ؟

وفي لحظة فهم كلّ شيء ، وحاول إغلاق الباب في وجه زائره . لكن وضّاح كان أسرع منه ، إذ عارض الباب بساقه ، وفي الآن نفسه ، وفيما كان الرجل يتقهقر إلى الوراء ، دفع وضّاح الباب وأطلق النار . رآه يترنح برهة ، والعينين تتّسعان ، ثم سقط بثقل على السجّاد .

دخل وضّاح بسرعة وأغلق باب الشّقة . انحنى عليه ، لقد أصابه في جبينه . ملّيمتران فوق الأنف تقريبا . لا شك أنه مات فورا . كان وجهه قد أصبح الآن ساكنا كوجه تمثال من الشمع ، وكانت العينان جاحظتين كأنّما تستنكران ، وعلى جانبي الفم المفتوح سال الدم قانيا .

رفع وضّاح رأسه وراح يتفحّص الشقّة . لحسن الحظ كانت الستائر مسدلة على النافذة ، ولا يبدو أن أحدا من الجيران سمع شيئا . عليه الآن أن يجد الوثائق وينسحب بسرعة . لم تكن الشقّة كبيرة ، كان المدخل الصغير يؤدّي إلى الحجرة الرئيسية التي كانت مقسّمة إلى صالون وغرفة نوم . ورأى بابين على جانبي المدخل . فتح الأوّل فرأى المطبخ ، وفتح الثاني فكان الحمّام . أغلق باب المطبخ ، وسحب الجثّة إلى داخل الحمّام ، ثم خطا من فوقها مجتازا إلى الحجرة الكبيرة .

كان هناك مكتب صغير قرب النافذة ، انتشرت فوقه بعض الصحف والمجلاّت . فتح الدرج ، وفتّش بين الأوراق . لم يكن الملّف الأصفر هناك . أغلق الدرج واتّجه إلى المنضدة فتّشها . لا يوجد شيء فيها . علب أدوية ، مسدّس ، أخذ المسدّس ووضعه في جيبه ، شوكولاته ، أوراق أخرى مختلفة . فتح الخزانة التي على يمينه ، رأى ملابس معلّقة ، أبعدها بيده . كانت هناك حقيبة سوداء . أخذها وحاول فتحها . كانت مغلقة باحكام . رجع أدراجه إلى بيت الحمّام . انحنى على الجثّة . فتّش جيوب المنامة . كانت المفاتيح في أحدها . أخذها وعاد ليفتح الحقيبة . كان الملّف هناك . حسنا ! انتهى كلّ شيء . بقي الآن أن يعمل مسرحية صغيرة ليقنّع عملية القتل . سحب الأوراق من الملف.طواها ووضعها في جيبه الداخلي . اتّجه نحو الجثّة . وضع

في يدها المسدّس الذي وجده في الكومودينو . " هكذا يبدو منتحرا ! " لم ينس قبل أن يخرج إعادة الحقيبة إلى مكانها . أقفل الخزانة من جديد ، واتّجه نحو الباب . وقف برهة يتنصّت . لا حركة في الرواق . فتح الباب وخرج بحذر. أغلقه واتّجه نحو المصعد . ضغط على الزّر الكهربائي . انفتح المصعد . دلف داخله . فاجأه خياله في المرآة . لم يكن قد رأى نفسه على هذا الشكل أبدا . ضغط الزّر ، وانقفل الباب . بدأ المصعد يتحرّك إلى أسفل . كان ينظر إلى الباب مستندا بظهره إلىالمرآة . وكان كأنه غارق في خدر عميق. كانت يداه في جيبي ترنشكوته ، وأحسّ بتصلّب في عضلاته ، وازداد حلقه جفافا . كم هو بحاجة إلى كأس الآن . نعم ، بحاجة إلى كأس أو كأسين أو ثلاثة كؤوس من السكوتش . بحاجة إلى شراب قويّ ينسيه تلك الصورة المقزّزة التي لم تفارق ذهنه منذ خروجه من الشقّة . ذلك الدم المنبجس من فم تمثال الشّمع . شعر كأنّ الوقت يتمطّى ويطول بلا نهاية ، والمصعد لن يصل إلى الدور الأرضيأبدا . هل سيبقى معلّقا هكذا إلى الأبد ؟ كم من الوقت انقضى منذ دخوله الشّقة وخروجه منها ؟ تطلع في ساعته ، التاسعة وعشر دقائق تقريبا . لقد تمّ كل شيء بسرعة غريبة . سرعة لم يتصوّرها . ومع ذلك ... هذا المصعد الذي لا يزال نازلا كأنّما هو يغوص به في أعماق الأرض . كأنه لن يتوقّف أبدا ،

إلاّ بعد اختراق مسافات جحيميّة غير متناهية في هذا الداموس الطويل . كان جفاف حلقه قد أصبح لا يطاق . وأحسّ بحبّة من العرق تنحدر على حاجبه . أخرج منديله ومسح به جبينه ، ثم أعاده إلى جيبه ونزع قفّازيه ووضعهما معه . توقف المصعد أخيرا . انفتح الباب المعدني ، فخرج إلى بهو الاستقبال

كان في الصالون رجل جالس على الدّيوان يقرأ جريدة مفتوحة على نحو يغطّي كامل وجهه . ولم يرق ذلك لوضّاح ، وتساءل " من يكون ؟ ولماذا لم أره حين دخلت ؟ " هل تبعه ؟ مستحيل . إنّه متأكّد من ذلك . هل رآه يدخل ؟ جائز . أين كان مختبئا إذن ؟ ربّما في سيارة من السيارات الرّابضة أمام العمارة . لكنّه لم يتذكّر أنّه لاحظ أيّة مراقبة لدى دخوله . وألقى إليه نظرة جانبية خاطفة وهو يتجاوزه متّجها إلى الباب . لم يتبيّن وجهه ، ولم يتحرّك الرجل . والتفت وضّاح إلى مكتب الاستقبال . كان البواب ، وهو كهل تجاوز الخمسين بقليل ، ذو شارب رماديّ وأنف أحمر مدوّر ، يضع رأسه الأشيب فوق ذراعيه المشبوكتين فوق المنضدة . كان ناعسا . وبدا كأنّه يرفع جفنا ثقيلا ويرمقه بعين واحدة . حرّك وضّاح رأسه باتّجاهه ليحيّيه بسرعة ودونما اكتراث ، وهو يخطو نحو الباب البلّوري ، ودفعه على مهل فإذا هو في الشارع .

كانت العتمة ثقيلة . ولم يكن فندق

الكومودور يبعد عن " وايت بالاص" سوى بضعة أمتار . هل يجازف بدخول الفندق القريب من مكان القتل ؟ ولم لا ؟ إنّهم بأيّة حال لن يكتشفوا الجثّة قبل الصباح ، عندما تدخل الخادم الشقّة لترتيبها . لكنّ ذلك الرجل الذي كان في البهو هو ما يحيّره . هل كان واحدا "منهم" حضر ليراقب كيف تتمّ العمليّة ، أو لمدّ يد العون له إذا ما أصابه مكروه ؟ أم تراه مكلّف بحراسة البناية ؟ إنّه لم يتحرّك ، ولا كلّف نفسه عناء النظر إليه . أمره مريب للغاية ! ربما لم يكن في النهاية سوى أحد سكان العمارة ، أو زائر ينتظر أحد المقيمين هناك . لماذا كان يغطّي وجهه ؟ لعلّه لم يكن يغطّيه بالفعل ، بل كان مستغرقا في القراءة ببساطة . وسحب علبة سجائره وهو يشقّ الشارع المعتّم باتّجاه الفندق .

كانت عواميد النّور تحاول تبديد العتمة في ذلك المساء الشّتائي البارد . وكانت الريح تنتحب في الشوارع وتلسع وجهه بسياطها التي لا ترى. وكان يتقدّم نحو الفندق بخطى متمهّلة والسيجارة التي لم يشعلها مغروسة بين شفتيه . وكان المارّة قليلين ، وقد وقف بعض الشّبان أمام شباك التذاكر في مدخل سينما الكومودور . كان الفيلم الذي يعرض يابانيا بعنوان " المحارب". هذا فيلم جيّد ، قال في نفسه ، لأن الأفلام اليابانية جيّدة في الغالب ! إنّ الأفلام التي لم يستطع هضمها إلى الآن

هي الأفلام المصرية والهندية . وفكّر أنها أفلام عاطفية لا تصلح سوى للمراهقات اللاّتي يتسلّين بالدموع لدى مشاهدتها . وأوشك أن يضع قدمه في بركة ماء ، وهو يشقّ الشارع الأفقيّ إلى رصيف الكومودور ، بينما كانت سيارة تعبر الشارع بسرعة ، فوثب بخفّة متراجعا إلى الوراء . وترك السيارة تمرّ وهو يلقي إلى السائق نظرة شزراء . ومرّت السيارة مثيرة بعجلاتها طشيشا من الماء الرّمادي ، واجتاز الطريق إلى الرصيف المقابل ، وخطا بين السيارات الواقفة بجانب الفندق ، ومشى إلى الباب البلّوري الكبير الذي انفتح أوتوماتيكيا ما أن داست قدماه الرقعة المطاطية الالكترونية . ودخل البهو الكبير المضاء بثرّيات وقناديل عديدة . وها هو الجو يصبح أكثر دفءا بفعل التكييف . وحيّا البوّاب الجالس إلى منضدة صغيرة بحركة من رأسه ، فردّ البوّاب التحيّة بأدب . وألقى وضّاح نظرة دائرية على البهو .

على اليمين ، كان هناك مكتب استقبال طويل يمتد حتّى المصعد . وكان بعض الغرباء ذوي السّمات الشمالية ، ربما كانوا أميركيّين أو أوروبيّين ، يتحادثون مع المضيّفين . وإلى جانب المصعد ، كان هنالك تليكس ، يخرج منه ببطء شريط من الورق بآخر أنباء الأحداث العالمية . لعلّ ذلك الجمع من الشماليّين هم مراسلو صحف أجنبية . يبدو عليهم ذلك . كانوا يومئون ويلتفتون ويتحركون

بلا انقطاع . كان بعضهم يتكلّم الايطالية والبعض الانجليزية . ولم تكن للمتكلّمين الانجليزية منهم أناقة خاصة في لباسهم . كان أغلبهم يرتدي الدجينز ، ويحتذي جزمتين متربتين ، ممّا جعله يعتقد أنهم أميركان . لا يوجد سوى الأميركان لدخول الفنادق في العالم على هذا الشكل من الابتذال في اللّباس ! أما الإيطاليون ، فقد كانوا على العكس يرتدون بدلات ومعاطف أنيقة . وكان واضحا أنّهم يعتنون بمظهرهم . كان بين الجمع ثلاث نساء ، أميركيتان وإيطالية ، وكان الرجال أربعة ، أميركيان وإيطاليان . وتجاوزهم وضّاح ملتفتا إلى اليسار .

كان الصالون الكبير خاليا تقريبا ، إلاّ من كهل أبيض الشعر ، يدخّن سيجارا كبيرا ، وهو جالس مع امرأة شقراء ، ذات صدر مكتنز وبارز تحت فستان السهرة الفاخر ، وعلى كتفيها معطف من الفرو. كانا يتحادثان بهدوء في زاوية من الصالون تحت لوحة زيتية كبيرة تمثّل رسما تجريديا . وعلى ديوان آخر من الصالون ، كان يجلس شابّ ذو لحية طويلة ، مدخّنا بصمت ، وعيناه معلّقتان بالسقف . واتّجه وضّاح إلى البار الذي يقع مدخله في طرف الصالون ، وتناهت إليه موسيقى تعزف داخل قاعة السّهرات .

عتّب الباب ، فإذا القاعة غارقة في نصف عتمة . واتّجه إلى المشرب الدائري الذي صفّت من حوله كراس

عالية ، اقتعد أحدها ، وهو يجول بنظرة فاحصة فيما حوله . والتفت إليه النادل ، فطلب كأس ويسكي دون ثلج أو ماء . وصبّ النادل الويسكي بحركات سريعة متقنة في كأس قدّمها إليه ، فشربها دفعة واحدة . وأحسّ الشراب يحرق حلقه وصدره ويسيل في جوفه . كان قد ولّع سيجارته لدى دخوله البار ، وسحب منها نفسا بعد إفراغه الكأس . وطلب كأسا ثانية ، بينما راح يتفحّص فتاة أوروبيّة تجلس قبالته على الطرف الآخر من المشرب الدائري . وكأنّ الفتاة أحسّت نظراته ، فقد رفعت رأسها إليه هنيهة لتلقي عليه نظرة سريعة ، ثمّ التفتت نحو الأوركسترا التي كانت تعزف أغنية فرنسية .

كانت قاعة البار مستطيلة الشكل ، وعلى جانبيها اصطفّت المقاعد والمناضد الواطئة التي وضعت فوقها ، بين كؤوس الزبائن ، قناديل حمراء وزرقاء بشكل شموع ، كانت ترسل ضوءا ناعسا . وكان بميسور وضّاح أن يرى من مكانه ذاك القاعة بأكملها ، ولم يكن عدد الزبائن كبيرا في تلك الليلة ، ربّما بسبب البرد ، وربّما بسبب الحوادث الكثيرة في تلك الأيّام . لكن كان هنالك عدد لا بأس به من النساء الأنيقات يصحبهنّ رجال يتحدّثون بأصوات مرتفعة ، ويرسلون بين الحين والحين ضحكات عالية تختلط بالموسيقى ورنين الكؤوس ، فإذا القاعة كلّها تضجّ كخليّة نحل .

ولم يكن على المشرب سواه والفتاة الأوروبية التي لاحظها منذ وهلة .

كان النادل قد وضع أمامه كأسه الثانية ، فتناولها وضّاح ، وأفرغها دفعة واحدة في حلقه . ثم أومأ إليه ، وطلب كأسا أخرى . وأسرع النادل يلبّي طلبه . كان الشراب قد بعث فيه دفءا وحرارة كان بأشدّ الحاجة إليهما . ومع ذلك ، فهو لن يتجاوز الكأس الثالثة هذه الليلة . لقد كان مجازفا حقّا بالدخول إلى هذا المكان غير البعيد عن " وايت بالاص" ، وهو يحمل الوثائق المهمّة . إنّها حماقة ! بالإضافة إلى ارتيابه في الرجل الذي كان يغطّي وجهه بالجريدة . من يدري ؟ ربّما كان أحد رفاق الجاسوس ! ورنّت في رأسه نواقيس الخطر. كان ذهنه قد استعاد نشاطه ، وأصبح يفكّر بمرونة وسرعة بعد التبلّد الذي أصابه فترة . وفجأة ، اتّضح له أنه لن يستطيع المكوث أكثر في هذا المكان الذي أصبح بمثابة قفص كبير دخله عن طيب خاطر ، وانتصب واقفا . كان النادل قد وضع أمامه كأس الويسكي ، لكنّه لم يمسّها ، بل أخرج من جيبه ثمانين ليرة وضعها على المشرب ، واستدار خارجا .

وفي اللحظة التي كان يتجاوز فيها الباب اصطدم بكتف زبون يدخل ، فالتفت قائلا : " عفوا ! " ولم يردّ الرجل ، بل نظر إليه بصمت نظرة متفرسّة ، شعر على إثرها وكأن قلبه يغوص في جوفه .

ودقّت نواقيس الخطر في رأسه مرّة أخرى ، وهو يتجاوز الزّبون الذي تسمّر في العتبة . وتحسّس المسدّس في جيبه ، وهو يخطو خطوات عريضة ثابتة قاطعا البهو الواسع نحو الباب دون التفاتة . وحيّاه البوّاب ، فرد التحيّة آليّا ، وهو يلقي نظرة خاطفة إلى الخلف . لقد غاب الرجل . إنّه زبون عادّي إذن ، أعصابي متعبة ، هذا كلّ شيء .

ووقف أمام الباب برهة ، وأخذ يعبّ هواء الليل البارد مالئا رئتيه به . كان رذاذ خفيف قد بدأ يتساقط على بيروت . ومشى وضّاح . شقّ الطريق إلى الرصيف المقابل . وبعد خطوات انعطف مع الشارع الصغير المفضيّ إلى الحمراء . مرّ أمام علبة ليلية ، ورأى فتاة واقفة في العتبة تومىء إليه بالدخول . ومشى في الشارع تحت المطر حانيا رأسه ، مغذّا الخطو . وتجاوز ساحة كبيرة على الرصيف تحفّها مغازات تجاريّة مقفلة . وفي طرف الشارع رأى سيارة تاكسي رابضة بجانب الرّصيف بانتظار زبائن اللّيل ، فاتّجه نحوها ، وحيّا السائق وهو يفتح الباب ويستقرّ على المقعد الخلفي قائلا : "كورنيش المزرعة يا أسطى ." وألقى السائق نظرة إليه من خلال المرآة وهو يدير المحرّك وزأرت السيارة منطلقة تشقّ الشوارع المبلّلة بالمطر .

طلب وضّاح كأسا ثانية ، وولع سيجارة أخرى ، وهو لا يزال محملقا في اللّيل . تطلّع في ساعته برهة ، نصف ساعة مرّت منذ دخوله المقهى ، الوقت

يمرّ ببطء غير متناه . رأى الزوجين يخرجان بعد أن تناولا القهوة . خرج زبائن آخرون أيضا ، ولم يبق في المقهى سواه وثلاثة رجال آخرين . كانوا يتناقشون بأصوات مرتفعة يتعتعها السكر . وحين عاد النادل بكأس الويسكي ، قال له بعد أن اعتذر إنّهم سيغلقون المقهى بعد ربع ساعة . وأراد أن يشرح له أنهم لم يكونوا يغلقون باكرا في السابق ، ولكنّ الحرب أجبرتهم على ذلك ، فصرفه وضّاح بعد أن نقده الحساب . وظلّ يشرب متأمّلا أخيلة الرجال الثلاثة منعكسة في البلور .

– إنّكما على خطأ ، لم أقصد أبدا إثارة الشكوك حول مازن ، ولا قصدت توجيه الحديث هذه الوجهة التي انصرفتما إليها . كنت أتحدّث عن شيء آخر ، عن الشعر ... عن قابليّة الشاعر للقتل ... عن احساسه وهو يطلق النار على الكتب ... وعلى البشر ... وها هو يرغب في بعث مجلة ... كأنّما هو يطلب الغفران لنفسه ... أوكأنّه يحاول ترميم ما حطّمته يداه اللّتان لم يكن يملكهما في تلك اللّحظة النّزقة .

– إنّها مشكلة فاوست ...

– وأنا أستغرب أن تكون أنت الناطق بهذه الكلمات . هل تعترف إذن ؟

– دعك من الاستفزاز يا أحمد . إنّك ستكون أذكى لو تركت هذه الطريقة في الحديث ...

– إنّه لم يقصد استفزازك يا منصور ،بل أراد

أن يشير إلى انتمائك الحزبي ...

– لقد فهمته جيّدا . لكن الصيغة التي استعملها كان فيها اتّهام .

– أنا لا أتهمك ، وليس في الاعتراف عيب .

– الاعتراف بماذا ؟

– الاعتراف بالفاوستية ... بالمرض بالانفصام ... أليست هذه هي المشكلة ؟

– ليس في الانتماء إلى الحزب أيّ مرض ولا انفصام . إنّك تميل دائما إلى المغالاة وتضخيم الأمور ، ثمّ إنّك لم تدعني أكمل حديثي ، كان عليك أن تنتظر ولا تقاطعني ...

– معك حقّ ! ماذا كنت تقول إذن يا أستاذ ؟

– لقد كان فاوست طالبا للمعرفة الخارقة ، المعرفة غير المألوفة ، وربّما غير المستساغة من طرف البشر العاديين ... أعني سائر الناس ... كان يبحث عن " الحقيقة المطلقة " التي ليس للبشر سابق معرفة أو صلة بها من أيّ نوع كانت . ودفع فاوست روحه لقاء هذه المعرفة ، ولكنّه دفعها للشيطان ، ولم يكن الشيطان سوى الوهم ، أو هو بكلمة أخرى غرور فاوست بالذات ، أيّ غرور الإنسان واعتقاده بوجود سبيل يشذّ عن القاعدة ويوصله إلى " المعرفة " . كان ذاك خطأ فاوست ، وهنا أيضا يكمن الاختلاف . كنت سأقول إنّها مشكلة فاوست مقلوبة . أعني أنه لا يمكن بأيّة حال تشبيه الشيطان بالحزب . فالحزب له

حقيقته أيضا ، لكنّها حقيقة بشرية يمكن للجميع إدراكها ببساطة . وهذه الحقيقة تنبع من خضمّ وجودنا بالذات ، ومعركتنا من أجل حياة أفضل . لكن التسليم بذلك يعني أيضا التأهّب لأشدّ أشكال العنف . أليست الحياة نفسها سلسلة لا تنتهي من العنف ؟ أليس التاريخ هو العنف ؟ لذلك لا أرى انفصالا بين الجمال الذي ينشده الشاعر والجمال الذي ينشده المقاتل في الجبهة ، لأنّهما في النهاية يصبوان إلى غاية واحدة . وهذه الغاية هي الجمال الروحي المتمثّل في مجتمع عادل يعيش فيه الجميع متساوين في الحقوق والواجبات .....

- كان هذا استعراضا جيّدا لأدبيات القرن التاسع عشر السياسية ، لكن الواقع مختلف في هذا القرن .

- بل سوف أسايرك في مزحتك وأقول لمعلوماتك الخاصة - يا أستاذ أحمد ، لقد كان استعراضا جيّدا لأدبيات القرن الخامس قبل الميلاد السياسية .

- اتّفقنا إذن ! فأنت تعترف بأفلاطونية ماركس ، وبالتالي بمثالية مشروعه .

- أنا لا أعني شيئا كهذا أبدا ، بل تحدثّت عن التواصل بين الفكر السياسي اليوناني القديم والفكر السياسي المعاصر ، دون أن يعني ذلك أنّني أسقطت من حسابي التعارض الأساسي بين الأفلاطونية التي تبقى فلسفة مثالية وبين الماركسية التي هي

منهج علمي لفهم التاريخ وتغييره . إنّ الفرق واضح مع ذلك ، وأنت كمن يحاول إدماج الليل بالنهار ، فيما أقول إنّهما متصلان منفصلان في آن معا .

– اسمحا لي ! ولكنّي أرى المشكلة من زاوية أخرى .....

أنهى وضّاح كأسه ووقف . اتّجه نحو الباب ودفعه . وجد نفسه على الرصيف من جديد . نظر إلى السماء ، كانت بعض الغيوم تزحف لتحجب القمر . ومشى على الرصيف . " هل ستمطر ؟ " رفع ياقة سترته الجلدية . لم تكن الليلة باردة ، ولكن الخريف كان على الأبواب . وفي لحظة ، فكّر أنّ الفصول تتعاقب ، والأرض تدور ، والزمن نفسه يعود بلا انتهاء . ومشى على الرصيف ، وتساءل لماذا يشعر أنه يعرف كل هذا من قبل ، كأنه عاش الأحداث نفسها ، ورأى الوجوه نفسها ، وسمع الكلمات نفسها منذ قرون ممّحية . وهو الآن رائح ليقتل ، كأنّه لم يولد سوى لأجل أن يقتل ، كما يولد آخرون لأجل أن يكونوا ضحايا . وتساءل عن معنى كلّ هذا ، ولماذا كان يجب أن يكون هو بالذات ، وضّاح عبد الهادي ، رائحا ليفعل ما سيفعل في تلك الآونة . وتذكر صابر وندى وأبا هاشم . تذكر ما قاله لمراد حلمي في تلك الليلة : " الثورة هي حياتي ، ولست بحاجة للبحث عن معنى خارجها ..... " وردّد تلك الكلمات

مرّة أخرى ، وهو يتقدّم على رصيف شارع الحمراء ، متحسّسا المسدّس في جيبه ، ومستنشقا ريح سبتمبر الآتي من سواد الشوارع .

# السّفارة

كانت السّفارة تقع في مبنى من أربعة أدوار ، وكان عدد من المسلّحين يحرسونها . وفي الطريق ، كان مراد حلمي يفكّر في السيد قاسم رزق الذي كان على موعد معه في ذلك الصباح . لماذا أراد مقابلته ؟ هل لديه معلومات جديدة يرغب في نشرها ؟ كان بإمكانه أن يرسلها أو يعطيها لرئيس التحرير شخصيا . لكنّ رئيس التحرير أصرّ على أن يذهب مراد بنفسه إلى الموعد ، ولم يكن بالإمكان الإفلات من ذلك . هل هي قضية صفقة السلاح مرّة أخرى ؟

لم يكن مراد حلمي يجهل أن جريدته تموّلها تلك السفارة ، ولم يكن يستغرب ذلك . فالدولة اللبنانية لا وجود لها إلاّ بالاسم . ومن الطبيعي في هذه الحال ، أن " تقبض " كل الصحف من السفارات . كان متوجّسا قليلا من هذه المقابلة . ومع أنه لم يكن لديه داع قويّ للخوف ، فلقد شعر وهو يقترب من مبنى السفارة أنه على وشك أن يدير المقود مبدّلا الإتجاه إلى الخلف ، ليعود من حيث أتى . غير أنه تمالك أعصابه في آخر الأمر ، وحاول أن يهدئ نفسه قائلا في سريرته ،

إن المسألة ليس فيها ما يدعو إلى الاضطراب .

أوقف السيّارة في المربض ، وترجّل نازلا .

عند الباب ، سأله المسلّحون عن هويته فأجابهم إنّه صحفي ، وإنّه على موعد مع السكرتير الأول . سألوه إن كان يحمل سلاحا . أجاب بالنفي . لكنهم مع ذلك فتّشوه .

قال أحدهم ، وهو شاب طويل اسمر ذو شارب أسود غزير :

– آسف أستاذ ! ولكنها الأوامر كما تعلم .

– لا بأس !

رافقه الشاب إلى مكتب الحاجب ، وقال له إنّه على موعد مع السكرتير الأول .

سأله الحاجب :

– ما الاسم الكريم ؟

– مراد حلمي ، صحفي .

وأخرج بطاقته من جيبه ، وقدّمها للحاجب الذي تناولها ، وقلّبها برهة ، مسجّلا الاسم على دفتر أمامه ، ثم ردّها إليه قائلا :

– تفضّل بدخول قاعة الانتظار يا أستاذ ، وسنخبرك حالما يكون السيد قاسم مستعدّا لاستقبالك .

– شكرا !

أدخله الحارس قاعة الانتظار ، وتركه هناك ، ثم خرج .

كانت القاعة واسعة ومفروشة بسجّاد أحمر ، وكانت هنالك أرائك ومقاعد وثيرة عديدة ، ذات لون فستقي شبيه بلون الستائر المزاحة عن النوافذ

ورأى مراد وهو يقتعد إحدى الأرائك رجلين يتحدّثان في طرف القاعة . وحين دقّق النظر فيهما، عرفهما . كانا وجهين بارزين من وجوه الحياة الأدبية في بيروت ، تلك الوجوه التي ترى صورها على صفحات المجلات والجرائد . أحدهما ، كاتب روائي معروف يسمّى حيدر عبد المطلب ، والثاني ، شاعر أصدر ما لا يقلّ عن خمسة دواوين ، واسمه حاتم أبو الكرم . وكان مراد يعرفهما لأنهما – مثله – من رواد مقهى " الاكسبرس". وتساءل عمّا يمكن أن يأتي بشاعر وروائي إلى هذه السّفارة ! هل وقعت دعوتهما مثله ؟ ولم يطل تخمينه ، فقد عرفاه . وتقدّم منه الروائي، قائلا ببهجة مفتعلة :

– آه ! ولكن أليس هذا صديقنا العزيز الأستاذ مراد حلمي ؟ •

ومدّ إليه يده ، فصافحه مراد . والتفت حيدر إلى الشاعر قائلا :

– أرأيت يا أبا الكرم ؟ ها هو الأستاذ مراد الصحفي ! لاشكّ أنه أتى لإجراء حديث مع سعادة السفير ! أليس هذا رائعا ، بعد تلك المقالة الخطيرة التي كتبها في الأسبوع الماضي ! ؟

وضحك حيدر ، وهو يشدّ على يد مراد بقوة . وتقدّم الشاعر ليصافحه قائلا :

– مع أنني – للأسف – لم أقرأ المقالة التي يتحدّث عنها صديقنا الأستاذ حيدر ، فأنا لا أشك

أن حديثا مع سعادة السفير سوف يكون مهمّا وشيقا إضافة إلى كونه سيرفع جميع الالتباسات بخصوص تلك القضية ال... مثيرة ! قضية الإيراني على ما أظن . لقد سمعت كلاما كثيرا يقال عن ذلك ، لكن الناس يا أخي ، يتحدّثون ، ويتحدّثون ، وفي النتيجة ...

قاطعه حيدر :

– وأما الزّبد فيذهب هباء ... تلك هي النتيجة يا صديقي العزيز !

وضحك حيدر حتّى ظهرت أنيابه الطويلة الصفراء ، والتفت قائلا لصديقه :

– أنت لم تقرأ المقالة ، ومع ذلك ، فأنت تعرف الموضوع أكثر من كاتبه يا أبا الكرم ، قاتلك اللّه !

وضحك مرّة أخرى وهو يربت على كتف حاتم الذي قال :

– واللّه يا أخي ! ... يعني ، نحن نعيش في بيروت ، وفي بيروت لا يمكن لشيء أن يظلّ خافيا أكثر من أربعة وعشرين ساعة . فما بالك والموضوع منشور في الصحافة ؟ أما قولك إنّني أعرف الموضوع أكثر من صاحبه ، فأنا واللّه لا أدّعي ذلك ! إنّما يريد الأستاذ حيدر أن يستعمل دائما كلمات غير دقيقة ، وهو ما قد يكون مضرّا لو انسحب على كتاباته ، لكنه كاتب رائع مع ذلك !

قال حيدر :

– إنّما كنت أمزح يا أبا الكرم . ونحن في الحقيقة بحاجة إلى الدقة في كلّ شيء ، بما في ذلك الكتابة . تصوّر يا أستاذ مراد ، أن الكتابة حين لا تكون دقيقة في مضامينها وفي كلماتها ، فهي قد تؤدّي إلى الغموض والالتباس ، بل إلى أكثر من ذلك ، ماذا أقول ؟ وفي الوضع الحالي للوطن العربي ، قد تؤدّي كلمة غير دقيقة أو في غير محلّها بصاحبها إلى ما لا تحمد عقباه !

قال حاتم :

– والله ! إنّه لوضع كريه حقا ! فالإرهاب لم يعد يستهدف رجال السياسة والدولة ، بل أصبح يطول الكتّاب والصحفيين أيضا . إنّها حالة يرثى لها يا أستاذ مراد !

قال حيدر :

– حياتنا أصبحت مرهونة بكلمة ، أو بجملة نافلة . إنّنا نكتب لأن واجبنا يقتضي منا ذلك ، لكنّ للحياة مقتضياتها وشروطها ايضا ! ونحن مجبرون على العيش في هذا الوطن الذي لا يعترف فيه بشيء يسمّى الديمقراطية . إنّ هذه الكلمة لا وجود لها في قواميسنا ولا في نواميسنا ، وإن وجدت ، فهي كالجسد بلا روح ، شيء لا معنى له . ألا توافقني يا أستاذ مراد ؟

قال مراد :

– وهو كذلك طبعا !

وفكّر : " هل هذه مسرحية مدروسة مسبّقا ، أم

إنها صدفة ؟ " وقال :

ـ لا شكّ أن حياتنا صعبة ، إنها مشكلة .

قال الشاعر وهو يضرب كفّا بكفّ :

ـ وأيّة مشكلة ! فالكاتب في الوطن العربي ، إمّا أن يكون بوق دعاية للحاكم ، وإمّا أن يكون في السجن أو في المنفى ، ولا يوجد خيار ثالث !

قال مراد بنبرة لا تخلو من سخرية :

ـ البحر وراءكم والعدو أمامكم ...

فأكمل الشاعر :

ـ وليس لكم والله إلاّ الصدق والصبر !

قال حيدر :

ـ لكن نحن كتّاب ثوريون ، وهناك خطّ أحمر لا يمكن التراجع عنه . وحين تكون المبادىء في خطر ، فإنّ الحياة نفسها تهون ...

قال أبو الكرم :

ـ طبعا ! المبادىء قبل كلّ شيء !

قال مراد :

ـ إنّهم مصيبة ! ( ورأى الحيرة على وجهيهما ، فأضاف : ،) أعني هؤلاء الذين لا مبادىء لهم ! فهم " يقبضون " من هنا ليشتموا هناك ، ويضربون رأسا برأس ويعتاشون من الفتنة بين الأنظمة ، وهم إلى ذلك ثوريّون وديمقراطيون وتقدّميون ! ...

وقاطعه صوت الحاجب الذي دخل في تلك اللحظة قائلا :

ـ أستاذ مراد حلمي ! السيد قاسم بانتظارك .

واستأذن مراد منهما ، وخرج وراء الحاجب الذي ساقه إلى المصعد ، وضغط الزّر ، ووقف منتظرا معه حتى انفتح الباب المعدني ، وظهر داخله شاب مربوع القامّة ، أنيق الهيأة ، دعا مرادا ليتبعه ففعل . وانفتح الباب من جديد في الدور الثالث .

قاده الشاب عبر رواق طويل ، تزّين جدرانه شعارات ثورية ، مؤطرة ، مكتوبة بخطّ كوفي جميل ، وكانت هنالك أبواب كثيرة ، بعضها مغلق، وبعضها مفتوح ، بحيث تسنّى له أن يرى لدى مروره من أمامها قاعة مكتبة تغطّي جدرانها رفوف الكتب ، وتتوسّطها منضدة طويلة للقراءة ، ورأى مكاتب معدنيّة تجلس وراءها فتيات يضربن على الآلات الكاتبة ، وفي طرف الرواق ، انعطف الشاب على اليمين ، ومراد خلفه ، ووقف هنيهة على عتبة مكتب ، وطرق الباب المفتوح بأصابعه ، فالتفتت السكرتيرة التي كانت جالسة ترتّب بعض الأوراق . كانت فتاة جميلة ، ذات شعر بنّيّ داكن ، ينسدل على وجه قمحيّ البشرة ، واسع الفم . ولاحظ مراد ابتسامتها الحلوة وعينيها الخضراوين ، وهي تتقدّم منه لتدعوه للدخول .

أجلسته السكرتيرة على مقعد وثير في صالون صغير ، وطلبت منه أن ينتظر لحظة ، ريثما تعلم السيد قاسم بحضوره . واتّجهت نحو الباب الذي في صدر تلك القاعة ، طرقته ، ودخلت لتغيب برهة قصيرة ، ثم عادت ودعته للدخول ، فوقف مراد

وتبعها .

امتدّت أمامه قاعة طويلة واسعة ، مفروشة بسجّاد مزركش ، وفي صدرها رأى مكتبا فخما يجلس وراءه رجل خمسينيّ ، أصلع ذو نظّارات طبيّة يدخّن سيجارا كبيرا . كانت رائحة السيجار الغريبة تملأ القاعة المضاءة بثريا كبيرة ، وكانت الستائر المخملية مسدلة على النوافذ . ولاحظ مراد وهو يقترب من الرجل حوضا بلوريّا يحوي أسماكا ملوّنة فوق طاولة قصيرة بجانب المكتبة .

وقف السيد قاسم ، ودار من حول مكتبه وهو يمدّ إليه يدا مفتوحة غليظة الأصابع مشعّرة . ولاحظ وهو يصافحه الخاتم الذهبي الكبير الذي في بنصره ، وأحسّ لزوجة غريبة في كفّه .

رحّب به السيد قاسم ، ودعاه للجلوس على مقعد بجانب مكتبه ، كانت أمامه منضدة صغيرة . ثم ضغط على زرّ الأنترفون ، وطلب من السكرتيرة أن تحضر قهوة للأستاذ مراد ، وسأله عن السّكّر . فقال له مراد " عادية ". وأعلم السكرتيرة بذلك ، ثم عاد يرحّب به ، ومراد يشكره ، ويتساءل عن سبب كلّ هذه المراسم والتشريفات .

قال السيد قاسم ، بعد أن تنحنح ومسح نظّاراته الطبيّة بمنديل صغير من الورق :

— نحن نتتبّع يا أستاذ ببالغ الاهتمام ما تكتبه في الجريدة من تحقيقات ومقالات وتعاليق لا تخلو أحيانا من ... ( وتردّد قليلا : ) جرأة !

لنقلها بصراحة . ونعتقد أنّك بلا شكّ من ألمع الأقلام الصحفية ، ليس في لبنان فقط ، بل في الوطن العربي بصفة عامّة .

قال مراد :

– أشكركم يا سيدي ، إنّني أحاول أن أؤدّي واجبي لا أكثر .

قال السيد قاسم :

– لاشكّ في ذلك يا أستاذ مراد ، لا شكّ في ذلك! ( وتنحنح ، ثم أضاف : ) إنّك تؤدّي واجبك على أكمل وجه ! وهذا هو الأساسي ، لأن العمل الصحفي ليس بسيطا أبدا ، خاصّة في هذه الظروف الصعبة التي تمرّ بها أمّتنا العربية . فالتأزّم الشديد في الوضع الحالي بلبنان ، وبالشرق الأوسط بصفة عامة ، يجعل العمل الصحفي سلاحا خطيرا في المعركة ... وقد يكون خطرا ! ... إذا جهل صاحبه بعض وجوه استعماله و ... تفرّعاته و و ... كيف أقول ؟ شروطه ... وسوى ذلك من مستلزماته وقوانينه .

صمت مراد متسائلا إلى أين يريد أن يصل . " هل استدعاني إلى هنا ليلقّنني درسا في أخطار الصحافة وإعلام الرأي العام ؟ "

طرقت الباب السكرتيرة ، ودخلت حاملة فنجان القهوة الذي وضعته على المنضدة الصغيرة أمام مراد ، واستدارت خارجة .

قدّم السيد قاسم علبة السيجار لمراد ، فاعتذر

قائلا إنه يفضّل تدخين سجائره . وأخرج علبته من جيبه ، فولّع له السيد قاسم سيجارته ، وواصل يقول :

ـ إنّك طبعا تتساءل عن سبب دعوتنا لك ، ( وابتسم ، فظهر صفّ أسنانه العليا ، ) ومن حقّك ذلك طبعا ! ولقد تفضّلت بقبول هذه الدعوة ، وجئت لزيارتنا مشكورا .

قال مراد وهو يحاول الابتسام :

ـ الحقّ أنّكم شرّفتموني بهذه الدعوة التي ... لم أكن أنتظرها !

كان السيد قاسم على وشك الكلام ، حين طرق الباب من جديد ، ودخلت السكرتيرة تحمل دفترا مفتوحا ، وتقدّمت من المكتب ، ووضعت الدفتر على حافته من ناحية مراد ، بشكل خيّل إليه أنه مدروس ، بحيث لا يمكنه سوى النظر إليه . ورأى صكّين فوق الدفتر ، كتب عليهما اسما حيدر عبد المطلب وحاتم أبو الكرم ، وحدس من عدد الأصفار أن الرقم كبير .

" هذه بقية المسرحية . لكن لماذا كشفوا لي ذلك ؟ هل يريدون إقناعي بكرمهم ؟ ربما سيعرض عليّ الآن إجراء مقابلة للسفير ، بحيث أسقّه ما كتبته ، وتنتهي القصة بسلام ! "

قالت السكرتيرة :

ـ سيد قاسم ! إنهما لا ينتظران سوى امضائك.

ووقفت منتظرة بجانب المكتب .

قال السيد قاسم ، وهو يقرّب الدفتر عابسا :

ـ ألم يكن بالإمكان إرجاء ذلك ؟

ووقّع على الصكّين وفي الدفتر ، ومدّه اليها قائلا :

ـ أرجو أن لا تزعجوني بعد الآن .

أنعمت السكرتيرة ، وأخذت الدفتر ، واتّجهت إلى الباب .

تنحنح السيد قاسم ، وقال :

ـ إذن ، ماذا كنّا نقول يا أستاذ مراد ؟

قال مراد ، نافثا الدّخان من أنفه :

ـ أنا الذي كنت أتكلّم . لقد قلت إنّني لم أتوقّع هذه الدعوة المفاجئة .

قال السيد قاسم :

ـ طبعا ! طبعا ! ( وأطرق صامتا برهة ،) . المسألة يا أستاذ مراد بسيطة ، ولكنها سرّية للغاية . ومن نافل القول إنها لا يجب أن تخرج من هذا المكتب .

ـ إنّني منصت اليكم .

اتخذ السيد قاسم هيأة حازمة ، وقال وهو يميل قليلا إلى الأمام :

ـ إنّك لا تجهل طبعا أنّنا نموّل عددا كبيرا من الصحف والمجلات الصادرة في بيروت ، بما فيها الصحيفة التي تشتغل فيها . ونحن ليست لنا أيّة مطامع مادية من وراء ذلك ، تلك سياستنا . وهذه السياسة ، تجعلنا نشجّع ماديا وأدبيا كل الصحف

التي تنتهج خطّا وطنيا تقدّميا لا لبس فيه . إنّنا لا ننوي أبدا السيطرة الايديولوجية على الإعلام ، ولا على الصحافيين ، إذ إنّ لنا إعلامنا الخاص . وبإمكانك أن ترى أن الصحيفة التي تشغّلك مثلا ، تشغّل أنواعا مختلفة من المحرّرين والصحفيّين والعمّال . فمنهم الشيوعي القريب من السوفيات ، ومنهم القريب من الصّينيّين ، ومنهم الاشتراكي ، ومنهم القومي ، ومنهم الثوري ، ومنهم "المعتدل"، ومنهم المسيحي ، ومنهم المسلم ، ومنهم السّنّي ، ومنهم الشيعي ، ومنهم من يوالينا ، ومنهم من لا يوالينا صراحة ، إلى آخر ذلك . والحال أننا في الواقع نؤمن بالحوار الديمقراطي ، وبضرورة أن تكون هناك آراء مختلفة ومتنوّعة ، حتى يتولّد من هذا الاختلاف والتنوع شيء من التوازن النسبي ضمن الخط العام للجريدة . والشرط الأساسي في كلّ ذلك ، هو أن يؤمن الإنسان بالمبادىء الوطنية العليا ، وبالمصلحة العامة في وحدة الصف العربي ، ضمن مقتضيات الساعة وضرورات المرحلة . هذا هو الخط ، وهذه سياستنا ، ونحن لا نتدخّل أبدا في عمل هذه الصحف ، حتّى حين تجيئنا الضربة منها !... ( وابتسم السيد قاسم بدهاء ) . إن الأمور واضحة فيما يخصّنا ، وإذا كانت هذه هي الحال ، فقد أصبح من غير المعقول أن نلعب على خيطين يا أستاذ مراد ! أرجو أن تكون متفهّما ، فـ ... قصة هذه الصفقة مثلا ... إنني والله لأول من

يندهش لما ورد في مقالك ! وأرجو أن أكون مخطئا ، لكني فهمت ، كأنك حاولت أن تقول إنّ لنا يدا في إفشالها ، وإنّنا غطّينا الإيراني . إنّني لا أفهم ما مصلحتنا في ذلك ! هذا ، لو تمّت الصفقة حقّا على أيدينا . والواقع أننا لم نكن نعلم شيئا عنها سوى ما نشرته الصحف فيما بعد ، وهو ما يعلمه الجميع . أمّا هذه الإيطالية التي تتحدّث عنها ، وتصفها بأنها " عميلة أحد الأنظمة العربية الثورية ، وأنّ لها علاقات بمجموعات متطرّفة في إيطاليا وأوروبا " ، وهي التي أخطرت الكتائب لأنها " تعمل لحسابهم أيضا " ، فأنا والله لم أسمع بها سوى منك ! أرجو أن أكون أسأت الفهم حقّا ! وأحبّ يا أستاذ حلمي أن أشير إلى أمر مهمّ فيما يخص " موظف سفارتنا " الذي زعمت أنه شوهد مع الإيطالية قبل أيام من الحادثة .
أوّلا : لا أدري من أين أتيت بهذه المعلومات التي أشكّ في صحّتها كثيرا ، وأنت تعرف أكثر منّي أنه يجب التثبّت من صحة الخبر قبل نشره ، وعدم الأكتفاء بالإشارة في مثل هذه الأمور .
ثانيا : حتّى لو كان لديك الدليل القاطع على ما تزعم ، فإنّ هذا الموظّف لا يلزم السفارة ، فقد يكون تصرّف لحسابه الخاص . وفي هذه الحال ، تيقن يا أستاذ حلمي أنّنا سنقوم بتحقيقنا في القضية ، واذا ثبت لنا ما تزعم ، فإنّنا سنعرف كيف نكافئك على كشف هذا " العميل " الخطر !

ورغم ذلك ، فأنا أميل إلى أنّ هذه المعلومة ليس لها أساس من الصحة ، لأنّ الذين يشتغلون في السفارة لا يرقى إليهم الشكّ يا أستاذ حلمي .

صمت السيد قاسم برهة ، فقال مراد :

– أريد أن أوضّح أمرا يا سيد قاسم ... فأنا لم أدّع أبدا أن سفارتكم بالذات كانت لها يد في العملية ، إنّني لا أشك في نزاهتكم ! هذا من ناحية ، أمّا بخصوص هذا الموظف الذي تحدّثت عنه ، فأنا أؤكدّ لكم أن مصادري لا يرقى إليها الشكّ أيضا ، ويؤسفني حقّا أنه لا يمكنني الكشف عنها !

قال السيد قاسم :

– هذا شيء مؤسف بالفعل ! ( وصمت قليلا ، ثم تابع : ) لكنّي يا أستاذ حلمي لن أجادلك أكثر في هذه القضية ، فأنا لم أدعك إلى هنا لأجل ذلك ... ( وصمت مرة أخرى قبل أن يقول : ) إننا يا سيدي ، كما قلت لك ، نشجّع المواهب ، وخاصّة الشباب الطموحين ، ونحاول قدر الإمكان مساعدتهم . وبإيجاز ... إنّنا ننوي تمويل مشروع جديد بالغ الأهمية ، وقد ... فكّرنا فيك ، كمساعد محتمل على تنفيذ هذا المشروع .

وصمت ليرى وقع كلماته على مراد . غير أنّ مرادا لم يردّ الفعل ولم تبدر منه أيّة حركة ، بل ظل هادئا يترقّب البقيّة ، فتابع السيد قاسم :

– لقد فكّرنا فيك بعد أن درسنا ملفّك طبعا . وتبيّن لنا أنّك الرجل الذي يمكننا التعويل عليه

في مثل هذا المشروع الذي يتطلّب كفاءة عالية ، وروحا من الجدّ ، وقدرة على التسيير والإدارة . وهذا ما وجدناه متوفّرا في شخصك . ولا أخفيك أن المشروع ستكون له مردودات إيجابية عديدة بالنسبة لك ، ولكنّ المسؤولية ستكون جسيمة أيضا . وموجز القول ... إنّنا ننوي تمويل مجلة أسبوعية سياسية جامعة تصدر من باريس ، وتوزّع في البلدان العربية ، وفي مناطق أخرى من العالم ، فـ ... هل يهمّك يا أستاذ مراد ، أن تكون رئيس تحرير هذه المجلة ؟

لم يتكلم مراد . ( هل فاجأه الاقتراح ؟ ) ظلّ صامتا برهة طويلة ، قطعها السيد قاسم قائلا:

– ربّما كنت بحاجة إلى مهلة زمنية تدرس فيها الموضوع جيّدا . إنّني أفهم ذلك ... وأحبّذه أيضا . وعلى أيّة حال ، فإذا كنت تريد أن تستوضح بعض الأمور ، فأنا هنا لأجل ذلك .

نفض مراد رماد سيجارته في المنفضة التي على المنضدة القصيرة ، ثم هزّ رأسه ، وأنشأ يتفرّس في وجه السيد قاسم ، محاولا النفاذ إلى حقيقة أفكاره ، والتقت نظرات الرجلين برهة ، فانغلق وجه السيد قاسم وأصبح بلا تعبير . لم يكن في ذلك الوجه الكبير ذي الذقن الأملس المدور والأنف المسطّح والنظارات الطبيّة ، ما يسترعي الاهتمام بشكل خاصّ . كان وجها عاديا كآلاف الوجوه التي يلتقيها الإنسان في لحظة مّا ، فلا تترك فيه أيّ

أثر يذكر . وتمرّ اللحظة ، ويمرّ الوجه معها ، كأن لا شيء كان من اللحظة ، وكأنّ الوجه لم يكن له وجود . كانت العينان فقط ، تبدوان خلف زجاج النظّارات أكبر من حجمهما الحقيقي ، عينان رماديتان أو خضراوان ، لا يذكر جيّدا لونهما . بل ربّما لم يكن لهما لون خاص ، لكنّهما كانتا مدوّرتين كعيني سمكة . ترى ، لماذا بدا له السيد قاسم شبيها بسمكة كبيرة ومؤدّبة ؟ هل بسبب عينيه ، أم بسبب تلك اللّزوجة الغريبة التي لمسها في كفّه لدى مصافحته ، أم بسبب حوض الأسماك الذي شاهده عند دخوله ؟ ونزع السيد قاسم نظّارتيه ، ومضى يمسحهما بمنديل ورقي أبيض ، ومسح مقدّمة صلعته بالمنديل ، ثمّ أعاد النظّارات إلى عينيه . وبدا كأنه يترقّب جواب مراد الذي كان يحملق فيه ، وقد زاد اقتناعه بأنّه جالس أمام سمكة تفكّر وتتكلّم ، في مكان لا يشبه أيّ مكان آخر . ربّما كانا في قاع البحر ، داخل قصر مغمور باللّجج ، تحيط به الحشائش والكائنات البحرية ، وتحرسه حيتان مفترسة . ونظر إلى يديه ، فرأى حراشف سوداء تغطّيهما، والخاتم الذهبي الكبير ذا الفصّ الأسود اللامع يخنق البنصر . وحوّل عينيه عنه ، وقد شعر بضيق لا حدّ له يضغط صدره ، وأصبح يتنفّس بصعوبة . وأحسّ بشيء كالغثيان يصعد إلى حنجرته . وظلّ يحدّق برهة في فنجان القهوة ، وطال الصمت ، فعادت السمكة تقول :

– أستاذ حلمي ! هل يمكن أن نعرف رأيك مبدئيّا ؟

كان لا بدّ أن يتكلّم في النهاية . فقال ، وهو يطفىء عقب سيجارته في المنفضة :

– بودّي أن أعرف لماذا اخترتموني – أنا بالذات !و... من الذي اختارني ؟

قالت السمكة ، وهي تبذل جهدا لكي تخفي تبرّمها :

– لقد اختارتك لجنة خاصّة يا أستاذ حلمي ... ولقد كنّا نعتقد أنّ المشروع سيثير حماسا خاصّا لديك . فأنت شاب طموح ، وهذه فرصة لا تعوّض لتحسين مركزك الاجتماعي والأدبي . فماذا تقول ؟

– صحيح أن العرض فيه ما يغري . لكنّ ... قيوده كثيرة أيضا و ... المسؤولية ثقيلة ، و ... بصراحة ، لا أعرف إن كان بإمكاني تحمّلها . حقّا !

ابتسمت السمكة رغم امتعاضها :

– نحن نعتقد أنّه بإمكانك يا أستاذ مراد ، وإلاّ ما كنّا اخترناك لمثل هذه المهمّة الشاقة . وتحقّق أنّ الذين اختاروك هم أناس جدّيون لا يمزحون في هذه الأمور .

أحسّ مراد بالضّغط الذي وقع على الكلمات الأخيرة فرفع رأسه ، وقال :

– لكن ... رئيسي ، الأستاذ عبد الواحد ، هل ... يعلم ؟

ـ كلاّ ، إنه لا يعلم شيئا بعد .

ـ ولكنه قد يرفض !

ـ أرجو ألاّ تعلّق أهمّيّة على ذلك ، لأن الأستاذ عبد الواحد لا يمكن أن يرفض لنا شيئا . بل بالعكس ، سوف يكون سعيدا بذلك .

فكّر مراد برهة ، ثم قال :

ـ و ... إذا رفضت ؟

تراجعت السمكة إلى الخلف ، مسندة كتفيها إلى ظهر المقعد ، ومضغت طرف السيجار ، قائلة :

ـ طبعا ! بإمكانك الرفض ، مع أنني شخصيا لا أرى في ذلك مصلحتك ! بل ... ( تردّد ، ) قد لا تكون لك أيّة مصلحة في الرفض ! إنّك غير مجبر يا أستاذ حلمي ، لأنّ الإنسان لا بدّ أن يكون مقتنعا كل الاقتناع بما يعمل ، وإلاّ ، ألحق الضرر بنفسه . وبعمله .

ـ أوافقك على ذلك .

ـ طيّب ! ولكن هل هذا جوابك النهائي ؟

ـ نعم .

ـ ألا تريد التفكير قبل التسرّع بالرفض ؟ لعلك تغيّر رأيك ؟

ـ لست بحاجة للتفكير يا سيد قاسم ، إنّني أعرف ما أريد ، وأنا أشكركم على كلّ هذا التقدير لشخصي . ولكن يؤسفني ألاّ أكون الرجل الذي تريدون . إنّني في الواقع غير قادر على تحمّل أعباء هذه المسؤولية الكبرى .

قالت السمكة :

ـ كما تريد يا أستاذ حلمي . أرجو ألاّ يكون عرضنا قد سبّب لك إزعاجا .

ووقفت ، فوقف مراد ، ومدّت له السمكة جناحها اللّزج ، فصافحها مراد .

ـ على أني أحب أن أقدّم إليك نصيحة شخصية ، إن كنت تقبلها ...

ـ إنّني منصت إليك .

قالت السمكة بابتسامة مفتعلة :

ـ نحن عرب يا أستاذ ! ... وأنت تعرف معنى مثلنا القائل : " من ليس معنا فهو ضدّنا ! " خاصة وأنت تحبّر مقالاتك الـ ... جريئة ! " سحقا للمقالات ! وسحقا للصحافة ! سحقا للأمثال العربية ! . من ليس معنا فهو ضدّنا ! . أيّة تعاسة ما بعدها تعاسة ! " قال :

ـ أشكرك يا سيد قاسم ! وسأحاول ألاّ أنسى النصيحة .

فتح مراد حلمي زجاجته الثالثة ، وصبّ البيرة في قدح ، ثم قذف بالزجاجة الفارغة على (الكنبة) ، حيث استقرّت مع الزجاجتين الأخريين . جرع جرعة طويلة من الشراب الأشقر ، وتجشّأ . مسح فمه بيده . وضع القدح فوق كتاب على الطاولة ، وانحنى على الآلة الكاتبة ، ليعيد قراءة بداية مقالته :

" إنّني أحب القصة البوليسية الجيّدة ، ولكنّ القصص جميعا تبدأ بداية خاطئة . إنّها تبدأ بجريمة القتل ، في حين أن جريمة القتل تأتي في النهاية . أمّا بداية القصّة ، فإنها قبل ذلك بكثير ... حين تتهيّأ الأسباب ، وتبدأ الأحداث التي تسوق أناسا معيّنين ، الى مكان معيّن ، في ساعة معيّنة ، من يوم معيّن ... "

هذا ما يقوله العجوز جريفز ، في إحدى روايات آجاتا كريستي . والآن ، إذا ما أخرجنا هذه الجملة من سياقها في الأدب البوليسي ، وأدخلناها في سياق آخر ، ولنسمّه : الإعلام ، وافترضنا أن الجريمة استهدفت على سبيل المثال ، الرئيس السابق للديمقراطية المسيحية الإيطالية : آلدو مورو ، حصلنا في النهاية على أمرين مشتركين ، نسمّيهما : الإرهاب والإعلام .

مشتركان ، لماذا ؟

لأن الإرهاب مهما كان نوعه ، ومهما كانت شروطه ، لا قيمة له خارج الهدف الذي يسعى إليه ، وهو : لفت انتباه الرأي العام إلى وجود " عفن مّا "، في " مكان مّا " ... وأنه بالإمكان القضاء على هذا " العفن " والوسيلة إلى ذلك واضحة جليّة : إنّها مقاومة العنف بالعنف !

" سوف تكون الحرّية كاملة متى استوى عند الإنسان أن يعيش وأن يموت "، يقول دوستويفسكي في " الشياطين ". وفي هذه العبارة ، تتجلّى

فلسفة الرعب التي أشعلت روسيا القيصرية والتي لا تزال تشعل عالمنا اليوم . وهو ما لا يختلف كثيرا عمّا يقوله أحد زعماء حركة من أهمّ حركات حرب العصابات في السالفادور : لأنّنا ثوريّون ، نحن نحب الحياة . وأنا كثيرا ما أشعر بالخوف قبل بداية عملية مسلحة ، لكن علينا أن نخاطر بالموت لكي نربح حقنا في الحياة ...

ولكن المهمّ هو الإعلام الذي يغطّي العملية الإرهابية . إنّ دور الإعلام سيكولوجيّ ومنحاز دوما . لا يوجد إعلام بريء . مثلا : في 17 مارس 1978 ، غداة اختفاء آلدو مورو ، سجّلت جريدة " كريير ا ديلا سيرا " ارتفاعا في مبيعاتها بنسبة 28 بالمائة . وفي 10 ماي من نفس العام ، وبعد عثورهم على جثة مورو ، سجلت الجريدة نفسها ارتفاعا في مبيعاتها لم تشهد مثله في تاريخها ، بلغ نسبة 56ر5 بالمائة . وخلال الأسابيع الثمانية التي استغرقتها قضية مورو ، لم تفرد الجرائد الإيطالية صفحتها الأولى لحدث آخر ، إلى جدّ أن مارشال ماك لوهن ، خبير الإعلام الكندي ، نصح الصحافة الإيطالية بكتم القضية ما أمكن حتى " لا تقع في لعبة الألوية الحمراء ".

إنّ العملية الإرهابية بذاتها لا تمثّل شيئا يذكر ، إذا ما قسناها بالدعاية التي تحوطها . غير أنّ وسائل الإعلام الباحثة باستمرار عن أفكار جديدة متنوعة ، قد تتخلّى عن الإرهابيين الذين

يجب أن " يبدعوا " على الدوام . إنّهم بمعنى مّا " كبار المازحين " في عصرنا ، حسب تعبير صحفي فرنسي . إنّ الإرهاب هو مغامرة العصر . إنّه المعادل الدمويّ للشركات المتعددة الجنسية ، التي ربّما كانت تمارس القتل بطريقة غير مباشرة ،ولكنّه قتل جماعي ، وخفيّ ... ( : أيّ مهذّب ! ) والإرهاب هو المسلسل الشعبي المثالي بتراتب جمعيّاته السرّية ، بتفرّعاته التي لا تنتهي ، وبأبطاله الغامضين ، الذين تتخاطف صورهم صحافة العالم بأسره . "

توقف عن القراءة ، وجرع جرعة أخرى من البيرة محاولا تركيز فكره . لم يكن ذلك هيّنا . " هكذا إذن ! من ليس معنا ، فهو ضدّنا ! معك حقّ يا سيدي ! معك حقّ ! " كان المطر ينقر زجاج النافذة ، وكان يسمع الريح مولولة في الخارج ، وتطلّع في ساعته ، كانت تشير إلى الثامنة . " ما أشبه هذه الليلة بتلك ! ما أشبه كلّ شيء بكلّ شيء ! " تناول القدح بيده ووقف . أنشأ يروح ويجيء في الغرفة .

كانت جدران المكتب المغطّاة بورق أزرق ذي زهور صغيرة بيضاء مزيّنة بثلاث لوحات زيتية تمثل رسوما سريالية . وفي الزوايا منها ، كانت معلّقة أربع تحف إفريقية وأسياوية ، قناع ياباني قديم ، وخنجران عربيان متصالبان في كلتا زاويتي الجدار الذي تتوسّطه النافذة ، وطوطم لقبيلة النوبة ورأس إلاه إفريقي غامض في كلتا زاويتي

الجدار المقابل ، الذي يتوسّطه الباب الفاتح على رواق صغير يؤدّي إلى باب الشقّة .
كانت الشقّة ذات الغرف الثلاثة المقسّمة إلى غرفة نوم وصالون ومكتب ، تقع في الدور الخامس من تلك العمارة الكبيرة العالية التي تكوّن جزءا من مباني ذلك المركّب التجاري الذي يحفّ بميدان " الحمراء سنتر " وكان مراد قد استأجرها مفروشة لدى خروجه من المستشفى منذ عام تقريبا .

كان لا يزال يذرع الحجرة جيئة وذهابا وهو لا يكاد يهدأ . وكان الفانوس المعلّق في السقف يلقي على وجهه النحيف ذي العظام البارزة والعينين المحوّقتين والأنف الحادّ والفم الصغير الجاف ضوءا أصفر يجعله يبدو وكأنه طالع من عالم ما ورائي . كان مشتّت الذهن لا يكاد يسيطر على الأفكار المتزاحمة في رأسه يطارد بعضها البعض دون هوادة وكان كلّ شيء في هذه الحجرة ، بل كلّ شيء في المدينة يذكّره بها . لم يستطع أن ينساها ، ولا استطاع أن يقتنع أنّها قتلت ولن تعود أبدا . لن تدقّ جرس الباب ، لن يفتح لها ، لن تقبّله على العتبة ، لن يرى شعرها الأحمر الطويل تتخلّله قطرات من الماء .

وتدخل كريستين ، تخلع ترنشكوتها الأبيض بحركات متأنّية ، تعلّقه في المشجب قرب الباب ،

وهو واقف ينظر إليها ، تجذبه برفق من يده ، تقبّله قبلة طويلة ، فيما تنزلق ذراعها لتطوّق عنقه ، ويستجيب لها ، يضمّها بين ذراعيه الهزيلتين ، ويقبّلها في عنقها وهي ترتجف وتلتصق به .

– وحشتني .

– كنت قلقا عليك .

– أوه ! أعرف ، أعرف ... كان هذا اليوم مفزعا جدّا ، أتدري ؟

– ستحكين لي كلّ شيء . يجب أن تجفّفي شعرك ، أنت مبلّلة .

– ليس كثيرا ، لكن لا بأس . أنزلتني سيارة السرفيس في طرف الشارع . أوه ! كان يوما رهيبا . إنّهم لا يتوقّفون عن القتال ...

مشت إلى غرفة الحمّام . فتحت الباب . ضغطت مفتاح الكهرباء ، ودخلت لتجفّف شعرها أمام المرآة ، ووقف هو على العتبة ينظر إليها . وأحسّ بالحاجة إلى التدخين ، فسحب سيجارة وولّعها وراح يملأ رئتيه بالدخان . يحبسه برهة ثم ينفثه من أنفه متأمّلا إياها حينا ، ومتأمّلا أنامله المصفرّة حينا آخر .

رمقته في المرآة وهي تمشط شعرها ، فقالت :

– حبيبي ! إنك تكثر من التدخين .

لم يجبها ، بل هزّ رأسه ونظر إلى وجهها المنعكس في المرآة بصمت . كان يحبّ فيه تلك

البراءة التي تجعله يبدو أحيانا أشبه بوجه طفلة منه بوجه امرأة في الثالثة والعشرين، بعينيه الخضراوين ذواتي الأهداب الطويلة، وحاجبيه الرقيقين المقوّسين، وجبينه العريض، والأنف الصغير المرسوم بدقّة فنّان فوق الفم ذي الشفتين الشهوانيّتين.

تهالك على (الكنبة) السوداء التي تمتدّ فوقها رفوف من الكتب، بين قناع المحارب الياباني ورأس الإلاه الإفريقي، وأغمض عينيه محاولا ألا يفكر في شيء.

ما الذي يعطلّ اللسان عن الكلام؟ أحيانا يبدو له أنّ الكلام لا يؤدّي المعنى الذي يريده، وكأنّ اللغة جعلت بين الناس حتّى لا يستطيع أحد إبلاغ الثاني ما يوّد إبلاغه، أو كأنّ ما يقال بين حين وآخر ليس هو سوى السطح الذي يزيّف الحقيقة التي لا تظهر أبدا. لذلك، فكثير من الكلمات والحركات والإشارات تبدو له كأنّها محض اتّفاق ليس إلاّ، وتتركه باردا تمام البرود، لأنّه ينتظر كلّ شيء من الصمت، ويعرف أن الزمن وحده قمين بأن يكشف الحقيقة التي تبقى كامنة في الأعماق، دفينة في الظلام.

لماذا كان يجب أن تموت هي أيضا؟ لماذا كان يجب أن تترك مدينتها لتأتي وتموت في هذا البلد الفظيع؟ لماذا تركت باريس؟ لقد كانت مجنونة! مجنونة! لا، لا. بل أنا المجنون.

اغفري لي يا حبيبتي . ها أنت تتركينني لعزلتي من جديد . تتركينني لعنف هذه المدينة . إنّني أشعر بالدمار يكتسحني ويعشّش في عروقي ، يعشّش في كلّ ذرة من لحمي ، يفتّت أعصابي . لم يكن لذلك المساء أيّ معنى إذن . لم يكن مهمّا أن تقودنا خطانا إلى جحيم الرؤيا . لم يكن مهمّا حتّى أن نوجد . ولماذا ؟ وأين مضى كلانا ؟ وحين عبرت جسمك باحثا عن روحي التي أضعتها يوما ، هل كنت أعرف ، وهل كنت تعرفين أنّني سأتيه من جديد في رحلة آلاف القرون والوجوه والأقدام والثورات والدم والألم والعذاب ؟ وهل كنت أعرف أنّني لن ألقاك في نهاية المطاف ؟ آه ! ماذا كنت أتصوّر ؟ ولماذا وكيف نتصوّر إذن ؟ هل تكون تصوّراتنا كلّها محض حماقة ؟ وهل نكبر يوما وهل نتعلّم ؟ وهل نبقى مثلما كنّا أم نتغيّر ؟

في الوحدة ... يفقد الإنسان شيئا فشيئا صوته . الوحيد ينسى نبرة صوته ، ينسى حتّى صورته ... ملامحه الغائبة في عالم المرآة المؤنسة .

في البداية ، وجدت شيئا من الأنس في الظلّ الذي أراه معي في هذه المرآة التي كنت تقفين أمامها ، تسرّحين شعرك وتبتسمين . ثم مع مرور الوقت ، أصبح ظلّي نفسه لا يطاق . كيف أخرج من دوّامة هذا الدمار ؟ يخيّل لي أحيانا أنّني نسيت الكلام . لم أعد قادرا على مخاطبة الناس لشدّة

ما يطغى الصمت على حنجرتي . إنّني أبذل جهدا فوق الطاقة البشرية لأخرج بعض الحروف ... حتى تكوّن هذه الحروف كلمة ... حتى تكون هذه الكلمة مفهومة ... واضحة ... وأحاول أن ألملم نفسي . أحاول أن أجمع هذا الشّتات المنتشر في كلّ جهة . أحاول أن أكون أنا الذي كنت من قبل . كيف أكون من كنت ؟ ومن كنت ؟

بعيدة هي المدينة ، آه ! لكن ادخلي الآن حقل المرايا . هذا القلب المتصلّب في عويل ريح مارس . من أين أتى هذا الإلاه الحربي ؟ لماذا قناعه حارق ؟ آه ! الطفولة التي بعثرناها خلف حيطان المدن ، خلف الخرائب ، قلبي ... هل تنصتين ؟

كانت تلك بلاد المرايا الخادعة ... قلت . انتفضت في شارع أحمر . تراشقت مع اللّه بالصواريخ . من سحب هذا الكلام من سمائه ؟ من أفرغ الحجارة التي كانت تملأني ؟ من قتلني ، أحياني ، ثم قتلني فأحياني ؟

وعدت ، الى غبار الطريق ، إلى السحب المتوهّجة بدمي . عدت إلى الموت ، أحاصره ، أنزع خصلاته الماكرة ، خصلة خصلة ، أرمي بها إلى البئر .

آه ، ! البئر ظلماء . طفت ، طوّفت ، لم ألقك.

أين أنت في بلاد العجائب هذه ؟ ولم كلّ هذا الانتظار ؟ هل كان ضروريا ... أن أراك... أن أعرفك... أن أقول الصمت ؟ هل كان ضروريا أن أتخبّأ خلف

أسوار الصمت ؟ أن أعود إلى هذيان الموت خلف المراكب والأعمدة ؟

لم تكن المراكب ، لم يكن الرّبّان ، لم يكن البحر ، لم تكن ...

كلّ هذا الليل يا قلبي ! كلّ هذه الريح الحافرة في دماغي نشوتها ! كلّ هذه الأحلام الظامئة الظامئة !

اخرج من جلدي أيّها الشيطان الأزرق ! أيّها الليل العنيف العنيف !

لا تأتي من الباب . لا تضيعي في الشارع . لا تدخلي هذا التاريخ الميّت . قلبي يؤلمني . أريد أن أتقيّأ الكون . أريد أن أصرخ لعنتي على هذه اللّغة المقفلة . أريد أن أحطّم الطريق الذي يملأني . أريد أن أوقد النار في لحمي . أن أصبح النار والريح والزمن والأشياء جميعها ، الأشياء جميعها ... الموت ، السرعة ، البياض ، العتمة المخيفة ، الليل ينهب الغبار ، يدي ، عيني ، أحلامي . آه ، ! أحلامي ... لماذا هذه اللّغة التي تخون ؟ أريد ... أن ... أحطّم ... حجارة ... هذا ... القلب ... المخيف .

إنّه الليل . إنّها الأشياء الصامته . السرعة ، الشبّاك ، المرايا الخادعة ، الصمت ، الانصراف إلى عتمة الشجرة المزروعة في أرخبيل الأفق .

صيحة ...

ثم لا شيء

لا شيء إطلاقا

غير وجهك الآتـــي ... مـــن زمن ... مشـــروع ... لجسدينـا .

هل كنت أحلم ؟ هل كنت تحلمين ؟ مـا الـــذي أيقظنـا ؟ في جبينك رأيت قدري . في عينيـــك رأيت موتي . في يديك هذا الوهج . في صمتك هذه القبلة التي يضعها نسيم مارس على نافذتي ... ويمضي ... ساحبا شاله اللاّمـــرئـي ... في تلاشـــي المساء .

آه ، ! يا بعدي .

اخرجي الآن من موتي . اتركيني ضائعا في عتمة التاريخ . ما دام العالم شرسا ... شرسا ... لمــاذا نفيق نحن ... في هذا العصر ؟ لماذا نفتح عيوننا على العالم الذي لا ترى شمسه المتوهّجة في صباحاتنا ؟

أعيديني إلى نافذتي . أعيديني... إلى غباري .

فلماذا ... ضيّق أنا هذا المساء ؟ ولمـــــاذا الألوان بلا طعم ؟ لم لا أنصت سوى للخطوات التـــي لا تأتي ؟

رواق فارغ قلبي .

يقتلني ... هذا الـ ... ذي ... لا ... أريـــ ... د البو ... ح به ... احتضاري البطيء ، تردّدي ، وجهي المقنّع . لا ، يدي ضائعة ، لا ، عيناك تجوســـان هذا الأفق المختل ، لا ، رأسي ... قدمي ...حذائي ... جوربي الأحمر المثقوب . لا أريد خياطته ، ليـــس لي صبر .

ضيّق ... كالمساء الذي ينتهي .

ضيّق ... كاللحظة التي تموت دونك ... دوني .

كالرجل الذي بلا وجه ... هل تعرفين ؟ سوف أمضي ... أنا أيضا . سوف ينطفىء هذا اللّهيب ... ذات يوم , سوف أخرج من الحياة ... مثلما جئت إليها ... عاريا ... دون كلمة ...

وبلا اعتذار .

ـ كان يوما رهيبا ... قالت وهي تجلس حذوه على ( الكنبة ) .

ـ ما الذي حدث ؟

ثم أردف كأنّما ليستدرك حماقة تفوّه بها :

ـ آه ! صحيح . لقد اشتبكوا اليوم في " الغبيري " .

سألت :

ـ من كان المشتبكون ؟

فأجاب وهو ينفث الدخان ويطفىء عقب السيجارة في المنفضة التي وراءه على الرّف :

ـ أغلب الظن أنهم الشيوعيون و " أمل " ...

ـ لقد جاؤوا بجرحى كثيرين . وكان من بينهم من مات في الطريق ... إنه شيء محزن حقّا ! أن ترى كل هؤلاء الأبرياء يصابون بالقذائف والرصاص ، ويشوّهون إلى الأبد أو يموتون وهم ما زالوا في سنّ الشباب ... شيء يجعلك تيأس من البشر .

– ليس الجميع أبرياء . بل منهم من أراد ذلك ...

– لا ، لا تقل ذلك . لا أحد يريد أن يموت أو أن يعيش بقيّة عمره بعاهة كريهة في بدنه ...

– بل هم أرادوا ذلك . أليست هذه حربهم ؟ ألم يفعلوا كلّ شيء من أجل إشعالها ؟

– تتكلم وكأنّ الأمر لا يعنيك . إنّك تدهشني ! ألم تشارك بنفسك في الحرب ؟

– الأمر مختلف . أنا شاركت في الدفاع عن الجنوب ضدّ الإسرائيليين . كان هناك عدّو واضح ، وكانت الحرب كلّها واضحة . لم نكن نطلق النار على بعضنا لأتفه الأسباب ، وأحيانا دون سبب ، كما يحدث الآن ... هنا ... في هذه المدينة اللّعينة

– ولكن الحرب قائمة هنا لأنّ الفلسطينيين في لبنان . إنّهم طرف فيها ...

– لا تعودي الى هذا الكلام بعد الآن . هل أنت كتائبيّة ، أم إنّك لا ترين أن الفلسطينيين يعيشون في لبنان لأن أرضهم انتزعت منهم ؟ ثم ألا ترين أنّني أنا أيضا في لبنان ؟ ماذا أفعل هنا ؟ هذه البلاد ليست بلادي . أليس هذا ما يقولون ؟ حسنا ! أنا بالنسبة إليهم متواطىء مع " الإرهابيين " ! هل تعتقدين أنّني إرهابي ؟

– كلا . لا أعتقد ذلك . هل أنت مجنون ؟

– لست بمجنون . ولكنّهم يقولون إنّني " إرهابي " لأنني أتعاطف مع الفلسطينيين .

أما أنا فأقول إنّني هنا في وطني ، والفلسطينيون في وطنهم أيضا ، وفلسطين أرض عربية . هل تعين ذلك ؟ في فرنسا ، لم يكونوا يقولون عني " هذا تونسي " ! ... وحين يشتمونني لم يكونوا يشتمون تونس . بل كانوا يشتمون " العربيّ " ، ولم يكونوا يفرّقون بين مشرقنا ومغربنا . " عربيّ " ! ... وانتهى كل شيء . " عربيّ " يعني " إرهابي " بالنسبة إليهم . لكن العرب ... لم يعد لهم وجود . لم يبق من العرب سوى متاحفهم وصورهم على بطاقات البريد التي يرسلها السيّاح إلى أهاليهم في أوروبا ، ليتمتّعوا بمنظر الرمال والجمال والقوافل . هؤلاء هم العرب عندهم . أمّا عرب الأزمنة الحديثة ، فيمكنك أن تشاهديهم في هذا المسرح الدامي المسمّى بيروت ، في هذه الحروب الصغيرة الدائرة داخل الحرب الأهلية ، الداخلة بنفسها ضمن الحرب مع اسرائيل ، المنتظمة هي أيضا داخل حروب الدول الكبرى ومنازعاتها التي لا تنتهي . آه ! إنّني لأرثي للعرب ! أرثي لحروبهم ، أرثي لهزائمهم ، لانتصاراتهم ، لكذبهم ، لنفاقهم ، لوطنيتهم ، لكلامهم ، لخطبهم ، لأفعالهم . سوف يأتي يوم يخجل فيه المرء لأنّه ينتسب لعرب آخر الزمان أولاء . سوف يأتي يوم ...

" من ليس معنا فهو ضدنا ! " حسنا ! يا سيدي . أنا معكم لأنّه لا يمكنني أن أكون

إلاّ معكم ، أليس كذلك ؟ ومحكوم عليّ أن أكون معكم ، يا للشيطان ! محكوم عليّ لأنّ " الكلب وحده ينكر أصله " ! هكذا قالوا لي في صباي .ويا ليتهم ما علّموني . يا ليتهم تركوني حمارا أنعم بجهلي ، حتى لا أرى أفعالكم يا سيدي . حتى لا أفهم اللعبة ، وحتى لا أشقى بفهمي .

كان المطر لا يزال ينقر زجاج النافذة ، والريح تولول بجنون . وتناهت إليهما فجأة طرطقة أسلحة أوتوماتيكية غير بعيدة ، فتبادلا نظرات متسائلة . واقتربت كريستين منه ، فضمّها إليه وهو يرهف السمع ، محاولا حزر المكان الذي كان ينشب فيه القتال . وقويت طرطقة السلاح كلما زادت اقترابا ، وتلاحق انفجاران عنيفان ، فارتعشت كريستين بين ذراعيه ونظر إليها سائلا :

ـ أخائفة ؟

قالت ، وهي ترفع نحوه وجه الطفلة ، وتلتصق به أكثر ساحقة نهديها على صدره ، كأنما لتحتمي به :

ـ كلاّ ، لست خائفة .

قال وعيناه تفترسان عينيها :

ـ أنت فتاة شجاعة !

فابتسمت ، وتتابعت الطلقات ، وكلاهما ينظر إلى الآخر نظرات تبدو كأنّها بدأت منذ الأزل ولن تنتهي أبدا . كانا يعرفان كلّ شيء ، ويفهمان كلّ شيء ، ويدركان ما لا يمكن أن يدركه سواهما

من عمق تلك اللحظة التي تجمعهما في اتّصال سرّي حميم لا يشبهه أيّ اتّصال ، ولم تكن له بداية معروفة . وتتابعت الطلقات . كانت قد أصبحت الآن قريبة تماما . وسمعت سيارات تمرّ في الشارع ، وصيحات حادة ، وزمامير ، وانقصاف رعد أو انفجار . وهمّ مراد بالوقوف ليتطلّع من النافذة إلى ما كان يحدث ، لكنها عانقته وتهاوت إلى الوراء جاذبة إياه فوقها ، ومردّدة بصوت ناعم رخيم في شبه حمّى : " آه ! يا حبيبي . خذني الآن ، لا تتركني ، خذني ، خذني ، خذني ..." فاحتواها بين ذراعيه ، وقد انفتحت أبواب إدراكهما على سعتها لتشمل في عناقهما المدينة المشتعلة وتلخّص تاريخ العشق البشري منذ فجر الزمن ، فيما الليل يتأجّج في الخارج ويتمزّق أشلاء دامية تحت مطر الرصاص والقنابل اليدوية .

# دفتر خاص

ما الذي كان يدفعني ؟ أيّة قوّة غريبة كانت تسكنني ؟ قوّة لا يمكن وصفها ولا حتّى تسميتها . هل كان ذلك الهاجس الذي لا رادّ له هو القوّة ؟ قوّة ؟ قلت : قوّة ! دعوني أضحك . أو ، كلاّ ، دعوني أبكي . أبكي أو أضحك ... أيّة أهميّة ؟ لا يوجد فرق حقّا ! السماء كانت هي السماء ، والبحر كان هو البحر ، والأرض لا تزال هي الأرض . و لا فرق . لا فرق حتّى بين الأشياء التي ترونها مختلفة . هل ترونها مختلفة ؟ تأمّلوا جيّدا هذا الانسان العاري الذي بين أيديكم . هل ترونه عاريا حقّا ؟ أم هل العري إلاّ خديعة أخرى ؟ دعونا من ذلك الآن . كان بالإمكان أن تجري الأمور على نحو آخر . أفضل أم أسوأ ... لست أدري ! والآن ، ها أنا أتقلّب في نومي وأدور في شوارع وهمية كالمسرنم ، وأتحدّث إلى الجدران . أتحدّث إلى ( الصندرية ) والولاعة والكأس . أتحدّث إلى الشجر وإلى الأشياء الجامدة . أتحدّث خاصّة مع الموتى ، لأن الموتى هم الأجدر بحديثي . ليس لأنّ حديثي أهمّ من أن يسمعه الأحياء . بالعكس ، إنّه حديث ميت . ميت يسوق كلاما للموتى . ها نحن

سواسية في هذه المقبرة الكبرى التي نسميها العالم أو ... التاريخ . قولوا ما تريدون . مجنون يهذي ، رجل بلا عقل ، ثرثرة محموم . إنّني أضحك . ألا ترون أنني أضحك ؟ كلاّ ، أنتم لا ترون ذلك . بيننا مسافات ، جدران ، مدينة . ربّما ... مدن ، بحار ، جبال ... جائز ! كل ذلك جائز . هل أنا غائب الآن ؟ لا لست غائبا فقط ، بل ميت قلت لكم . ميت ، ميت ، ميت . وكان كلّ شيء يدفعني إلى الرحيل . هي أيضا كانت تدفعني . المدينة بأسرها كانت تدفعني ، تدفعني ،تدفعني. وأنا كنت أمشي كالمسرنم وأبكي في الطرقات ، أبكي في الشوارع ، أبكي على ضفّة النهر الحجرية التي لم تكن تفهم لماذا كنت أبكي ، ولماذا جئت إلى النهر ، لماذا جلست أنظر إلى مياهه الرمادية الوسخة المنحدرة منذ الأزل ، ومنذ كانت المدينة ، منذ كان البشر ، منذ قدم " فرسنجيتوريكس " وجيوش الغال واللاتينيّون وشعوب الشمال الغربي ليستقرّوا هناك على ضفاف النهر ، ويقيموا المدينة التي لا تزال تشمخ إلى الآن بقصورها وعماراتها ومبانيها الداكنة ومتاحفها الفنية والتاريخية ، ورجالها ونسائها وأبطالها وأوهامها وخيالاتها وجنون متسكعيها وشرّدها ومساكينها وأحفاد الأباطرة الدمويّين من سلالة نابوليون ولويس الرابع عشر والخامس عشر ، وأبناء ثوّار " الكومونة " أولئك الذين خلفهم " فاليس "

و " رامبو " وسجناء " الباستيل " الذين حرّروهم من سلاسلهم يوم خرجوا يصرخون : " آه ! ماشي الحال ! ماشي الحال ! ماشي الحال ! أما الأستقراطيون فسوف يشنقون ! " وحطموا كلّ شيء وفرّ الملك ، وترك أهل البلاء في البلاء ، وامتطى عربته وأطلق سنابك الأحصنة للرياح الأربعة ، وجاء " روبيسبيير ، جاء دانتون ، وجاء الماويّون والتروتسكيون والوجوديون والسورياليون المتأخرون والدّادائيون المنسيون واخوان التكعيب والصفاء " السوربونيّون " جماعات جماعات ، يسبقهم بوريس فيان وسارتر وأراغون وعازفو الجاز و " البي بوب " في أقبية " سان جرمان " ، جاء " كوهن بنديت " و " جلوكسمان " و " فوكو " وأصحاب الياقات الزرقاء وحاملو الرأية السوداء وديونيزوس و " نرفال " المشنوق ، وقلعوا حجارة الطريق ووضعوا الحواجز أمام البوليس وصفقوا للحرية في باحة الجامعة ، ورابطوا وهتفوا وحاضروا وحوصروا وطيّروا النعاس من عيون الأهالي ومن عيني مفوّض الشرطة ، واختنقوا بالغازات المسيلة للدموع ، وبكوا ، مثلما بكيت أنا على ضفاف النهر الذي تنحدر مياهه الداكنة منذ الأزل دونما اكتراث ، وجئت أنا بعد سنوات من ذلك ، جئت بحقيبة وأحلام لا تنتهي ، ووقفت على ضفة النهر مثلما وقفوا ، دون أن أنسى أنني لست منحدرا من سلالات

الشمال ، ودون أن أنسى أنهم جاؤوا يوما إلي وطني ليعلمونا كيف تكون مبادىء الحرية والأخوة والعدالة مجرّد كلمات مكتوبة بخط جميل على ورق أبيض ليس إلاّ ، وكيف تكون " الديمقراطية " كلمة جوفاء لا معنى لها ، وكيف نكون نحن " الرجال الجوف " الذين سيكونونهم إبان الحربين . هكذا دار الزمن دورته ، فإذا بأبناء عمومتهم من قبيلة " الرايخ الثالث " يطوّقونهم – كما طوّقونا – بالحديد والنار . عطسة من التاريخ ، كادت تودي بالبشرية قاطبة إلى " حجرات العالم السفلى " . مستعمرون ومستعمرون ، يساريون ويمينيون ، ملوكيون وجمهوريون ، جنود ومدنيون ، لا فرق ، لا فرق . إلى الأمام ! صاح " الفوهرر " . الجميع – يمين ... در ! إلى الثكنة ! وذوو الأنوف المعقوفة والنظرات الهاربة من أبناء إسحق ، للأفران . قال ذلك ، وخطا خطوات عسكرية . خطوة ، خطوتين ، ثلاثا . ها هو على تخوم الشمال الشرقي حيث صحراء الثلوج تمتد دونه والكرملن . ستالين يمسح على شاربيه ويلتفت حوله : أين رجالي ؟ أين الجيش الأحمر ؟ إلى الأمام أيّها البلاشفة ! " أنا الذي صنع امّكم روسيا ... إلى الأمام ! امنعوا هذا القزم ذا الشارب " الشارل – شابليني " من الدّوس بجزمتيه الملطختين بالدم على بطن أمكم روسيا . هيا يا أبناء نيقولا الأكبر . أمّا ذوو الأنوف

المعقوفة والنظرات الهاربة من أبناء اسحق ، فسوف نعيدهم إلى الشرق ليجزّروا أبناء عمومتهم من سلالة اسماعيل . لا بارك الله فيهم جميعا ! إنّهم عاقّون . ومن المستحيل أن نجعل منهم بلاشفة يقودون التاريخ إلى حيث يجب أن يقاد . نحن نعرف كيف يتحرّك التاريخ . وإن لم يتحرّك ، حرّكناه ، بضرب قفاه . إلى الأمام ! لا يوجد عندنا مكان للأنبياء الدّجالين . آه ! باطل ، باطل ! أيها العهد القديم - الجديد . باطل ما تفعل ، باطل ما تقول ، باطل ، كلّ شيء باطل . ولا جديد تحت الشمس ، لا جديد تحت القمر . والشجرة التي تركتها حين أبحرت لا تزال هي الشجرة ذات الأغصان المتمايلة في نسيم المساء والجذور الممتدة إلى قلب الأرض . لكن ، ما الذي كان يدفعني ؟ ما الذي كان يدفعني ؟

كان المساء أحمر ، وكانت " هي " تتمرأى في عينيّ ، وكان يسكن عيني الفضاء الذي ليس له انتهاء . لا فضاء الطيور ، بل فضاء الكواكب والمدارات ، فضاء البرد الإلهي ، فضاء يضحك فيه الملائكة مع الخالدين . عيد الأبدية الدائر حول نفسه ، الدائر كتلك العجلة الخديدية التي رأيتها في " مدينة الملاهي " ، حين نزلت أتمشّى في الكورنيش .

لم يكن ذلك المكان يشبه أيّ مكان آخر !

دخل . عيناه مغمضتان . ومع ذلك أحسّ بسحب

عديدة تعبر السماء في تلك اللحظة . كان بإمكانه أن يحصي عدد الشجيرات الواقفة في العراء . كان بإمكانه أن يمدّ أصابعه ليتلمّس النتوءات الخشنة في جذوعها . وقف برهة . فتح منخاريه ليستنشق الهواء ملء رئتيه . كان الهواء رطبا . أحسّ أملاح البحر تملأ حنجرته . مدّ يده إلى جيب سترته . أخرج منديلا . تمخّط . أعاد المنديل إلى جيبه . أين هو الآن ؟ ما هو الزمان ؟ ما هو المكان ؟ ها هو يقف مستقلاّ عن كل شيء . ولا شيء يمكن أن يطوله من العالم الخارجي . وفي داخله عواصف مكتومة . الآن يجب ان يفتح عينيه . يجب ان يرى ما يراه الآخرون . الغرفة موصدة . النافذة مفتوحة . صور البحر البعيد . وتلك الدوّامة . عجلة كبيرة معلقة في الهواء ، تدور ، تدور ، تدور ، بلا انتهاء . عجلة من الحديد المتشابك ذات خيوط كهربائية كأنّها العروق النابتة في جسم غير بشري تدور ، تدور ، تدور . والأراجيح المشنوقة تتمايل ذات اليمين وذات الشمال . أشباح تقتعد الأراجيح. أناس بلا ملامح تميّزهم . ضحكات تتعالى . والعجلة تدور ، دائما تدور ، تدور ، بقسوة ... هو لا يزال واقفا على الرصيف . الهواء الرطب . المساء القادم موجة إثر موجة . البحر الممتدّ على الصخور البيضاء الكبيرة . ها هم يندفعون ، جماعات أو فرادى . الرصيف محتشد بهم . أصوات الباعة تتعالى . ضحك يتكسّر بعيدا ثم يتلاشى شيئا فشيئا

والصدى يكرر الصدى . ما هي الساعة ؟ وأيّة أهميّة لذلك ؟ هو أيضا يريد أن يندفع مثلهم ، لكنّ شيئا مّا يقيده . لا يزال مسمّرا على الرصيف يحدق في الآلة المعدنية الدائرة حول نفسها . ها هم يتراكضون . حلوة تلك الفتاة السمراء ذات الليل المنسدل على كتفيها . إنّها تجلس على صخرة أمام البحر وتحدّق في البعيد . ترى ، ماذا تنتظر؟ هو لا ينتظر شيئا . لقد انتهى انتظاره . انتظرها طويلا . وحين لم تأت ، مزّق الصور والرسائل وقذف بها إلى النار . هكذا لم يبق سوى الرماد . حتّى الرماد سقط في البحر . كل شيء للنسيان ، إلاّ الألم الذي يختم الروح بخاتم من النار الأزلية . الألم الذي يجعله يعيش بقوّة متنامية كلّ لحظة تمرّ . غدا لن يشبه اليوم ، كان يردّد في سريرته . غدا لن يشبه اليوم ... بحرارة من يحتضر ، بينما عيناه تجوبان الأفق باحثتين عن علامة مّا . عمّ كان يبحث ؟ لم يكن يريد تصديق ما حدث . ( هل حدث حقا ما لا يمكنه تصديقه ؟ ) شيء أقرب إلى الخيال . جنون ! خيانة ؟ كان يتشبّث بالوهم حتّى يحوّله إلى حقيقة . كأن يمدّ ذراعه في الظلام ليتلمّس جسمها . ولم يكن جسمها سوى طيفا . أو كأن يدخل الشقة بعد العمل فيقبّلها ويجلس معها على ( الكنبة ) . يعانقها ، ويحملق في عينيها طويلا ، ويقول ... كلاّ . لم يكن ذلك سوى وهم آخر . اذن يلوذ

بالصمت . ويدوم صمته أيّاما ، أسابيع ، شهورا . من يدري ؟ هل كان يعدّ الأيام ؟ هل كان يدرك الزمن ؟ هل كان يرى المكان – حتّى المكان الذي هو فيه ؟

ما الذي يعطّل اللسان عن الكلام ؟

أيّام وأيّام يجوس هذه الشوارع الخلفية المفضية إلى البحر في صمت . وحين يعترضه أحد جيرانه يظنّه عصفورا اسطوريا . يقول : " أهلا تسا – تسي . كيف الحال تسا – تسي ؟ هل أنت حزين تسا – تسي ؟ هل قتل أحد أقربائك في هذه الحرب تسا – تسي ؟ منذ زمن بدأه الجنون . لم يعد يعرف سوى ما لا يراه الآخرون . وها هو يخلط كلّ شيء بكلّ شيء . باريس . بيروت . الشام . تونس . طرابلس . الدار البيضاء . عنابة . بروكسيل . مدريد . آمستردام . لندن . القاهرة . ساو باولو ماتشو بيتشو . نيويورك . موسكو . مورونـي . نجامينا . روما . مدن ووجوه وحقائب وشموس . وإلى أين ؟ القطار السريع يطوي السكك المتوازية . إلى أين ؟ امرأة اسبانية ذات شعر لا يشبهه سوى هذا الليل المترامي على السهول المنبسطة حتى تلاشي البصر . امرأة عيناها نجمتان تتألقان في وجه لوحته شمس الأندلس الحمراء ، تجلس بجانبه ، والقطار السريع يطوي السكك المتوازية ، الأعشاب البرية ، الحصى ، الزنابق ، الشجر . تغفو المرأة . تميل نحوه . جسمها يلاصقه . وهو يحاول أن يركز

فكره على شيء ما سوى هذه المرأة التي أتت من اللاّمكان وراحت تتنفس بتناغم مع تنفسه . هل هو واهم ؟ ربما كان هو الذي يحاول أن ينسّق تنفسه مع تنفسّها . ربما شعرت المرأة بذلك . لقد أصبحت الآن ملتصقة به تماما والقطار يسرع . وإلى أين ؟ " آل خيثيراس" قالت . الجزيرة الخضراء ! وها هما يقفان حذو النافذة يراقبان طلوع فجر جديد والأرض تحمرّ والأشجار تنخطف وهي ترسم بسبّابتها على زجاج النافذة المغطّى بالنفس كلمة يقرأها : " ماريا ! اسمك ؟ " هزت رأسها مؤكدة . رسمت حروفا أخرى . قرأها . من هذا الـ " كارلوس" ؟ زوجها ؟ ربّما . كلاّ ، إنّه طفلها . تركته في مدريد . ولماذا هي ذاهبة إلى الجزيرة الخضراء ؟ عائلتها هناك . إذن هي أندلسية . " ألا تأتين معي إلى طنجة ؟ " " لا أقدر . " سؤال أبله ! امرأة لم يعرفها سوى اللحظة ، وهو فضلا عن ذلك عاجز عن محادثتها سوى بالإيماء – يسألها أن تترك زوجها وطفلها لتمضي مع شريد لا مقرّ له إلى طنجة ! والقطار يتوقف في محطة بين مدريد والجزيرة . يصعد طابور من الجنود . إنّهم يتّجهون إلى بلاد " الباسك " مدجّجين بالسلاح ، أليس كذلك ؟ هي لا تعرف . " ماذا يريد الباسك ؟ " " إنهم لا يحبّون الملك . " وأنت ، هل تحبينه ؟ " صمتت صمت . الجنود يشربون البيرة ويقهقهون .

هل سيقهقهون حين يطلقون الرصاص على المتمردين ؟ كأنّ هذا الضحك نسيان للموت الذي يحملونه في بنادقهم ، كأنّه تمرّدهم الخاصّ على الطاعة والانضباط . الضباط يلعبون الورق . يقتلون الوقت . ( هل يقتل الوقت أيضا ؟ ) القطار السريع يطوي السكك والمسافات المتوازية . الشمس تتوسّط السماء . الزياتين تنتشر على مرمى العين . من هنا ، مرّ العرب فاتحين . وهنا استقرّوا وتناسلوا قرونا . رابطوا وعلّموا وتعلّموا . بنوا وشيّدوا وعمّروا القصور والمدن . نشروا الضياء عندما كانت هذه البلاد متغلغلة في ظلمات العصور . ثم مضوا... كأنّ شيئا لم يكن . مضوا مثلما يمضي هذا القطار من محطة إلى أخرى . وحين يتوقّف في المحطة الأخيرة ، وينزل المسافرون جميعا ، تنزل ماريا وتمضي أيضا ... كأنّ شيئا لم يكن .

ما الذي يعطّل اللسان عن الكلام ؟ ما الذي يجعله يتحجّر في الفم ؟ ويثقل الرأس . تثقل اليدان . يثقل الجسم كأنّ الأرض تجذبه بقوّة معجزة ، وتشدّه إليها كلّما همّ أن يطير .

لا أهميّة مطلقا لكل ذلك الآن . لا أهميّة لأيّ شيء بتاتا . ومع ذلك فإنّ قوّة باطنية تدفعه إلى الأمام دفعا . قوّة لا رادّ لها . إنّه يسير ، يقطع شوارع ، طرقات . يحاذي أبنية ، عمارات . يرى أناسا يسيرون مثله . يتوقّف فجأة . هل هم مثله ؟ هل لهم المدارك نفسها ؟ التصورات نفسها ؟

الأحاسيس نفسها ؟ كلاّ ، لا يمكن ان يكون ذلك . لو كانوا متماثلين في كلّ شيء . لكان العالم غير ما هو الآن . بل ما كانت الحياة لتعاش ؟ ولا كانت ممكنة أصلا ؟ كلّ إنسان عالم قائم بذاته الإنسان ... ما هو ؟ لا أحد يمكنه أن يجيب بما يرضي الجميع . والجميع يعرفون إنّهم لا يعرفون شيئا عن اللغز . وحين يتعطل اللسان عن الكلام ، تتوالى الصور على شاشة الوعي مثل شلال بلا انتهاء .

**تونس . خريف** 1982

" لمدّة طويلة كان لي وجه غير مجد
أمّا الآن
فلي وجه ليحبّ
لي وجه مسعد . "

إنّه الصبح . كأنّني أنهض من نوم دام سنينا ، أو كأنّني أنهض من موت . قرأت هذه الأبيات البارحة . إنّها لشاعر فرنسي على ما أظن . ( إيلوار ! ) وهأنذا أستعيدها دون وعي ، كأنّني في غيبوبة ، وكأنّ ما حولي غير حقيقي . أنظر من النافذة لأتثبّت من أن الكون لا يزال راسخا في مكانه . بلى . ها هي فروع شجرة اللوز تمتدّ لتعانق السور الابيض القصير . إنّني أسمع دقات الساعة المنبّهة ، وأتطلّع فيها بشيء من الحقد . ترى ، لماذا أحقد على الساعة ؟ كلاّ ،

إنّني لا أحقد عليها . لنكن عقلانيّين قليلا ، وإلاّ ... و إلاّ ماذا ؟ لا أدري . أمدّ يدي إلى رفّ المكتبة . سوف أقرأ " إيلوار " :

" أنا بحاجة إلى عاشقة

عاشقة عذراء

عذراء بفستان خفيف . "

وهل لا بدّ من أن تكون عذراء ؟ كلاّ ! بلى !

أنا بحاجة إلى عاشقة فقط ، ولتكن ما تكون . ما دامت سوف تعرفني حين تراني لأول مرّة ، وتقول : " إنّه أنت . أنت الذي كنت أترقب . "

كلّ الدروب تفضي إلى روحي . ورقتان سقطتا من الشجرة . ظلّتا ساكنتين فوق الإسمنت ، كأنهما تتعانقان . غريب ! ( أنا .. وهي ! )

إنّه الصبح . كأنني أنهض من نفسي وأسير في نفسي ، أتغلغل في مناطق شاسعة واسعة .

كان بإمكاني أن أمنحك جواهر الليل التي لا يعرف سرّها سواي

كان بإمكاني أن أمنحك طيور السحر ذات العين النارية

كان بإمكاني أن أمنحك الفصول في دورانها

والأنهار في سيلانها

وكلام الكواكب في ما بينها

وجنون المجرّات اللامنطوق

كان بإمكانيَ أن أضيء لك الليل بعيني

كان بإمكاني أن أمنحك سفينة روحي في هذا

الطوفان الأسطوري
كان بإمكاني
كان بإمكاني
لكن ... آه !
ماذا أفعل الآن بالعالم كلّه
وأنت لم تعرفيني ؟

**بيروت . شتاء** 1980

" كراهية الشعر " *... كتاب أحبّ أن أقرأه . بعد لم أحصل عليه . لن أداور . بلى . أيّ شيء ! ( قل أيّ شيء تستعيده الذاكرة في هذا الزمن الفجّ . ) أيّ شيء ! ( أيّ شيء أفعل حتّى أكسر المرآة دون أن أنكسر معها - فيها ؟ ) نعم . أيّ شيء ! ولكن من أين أبدأ ؟ ( دع الثرثرة . اطرح جلد الثعبان الذي تتقنّع به في الحفلات الاجتماعية . ألق ببصرك إلى الأغوار . ماذا ترى ؟ ) أرى فحمة تتوقّد ، تومض ، ثم تخبو ، وتتحوّل إلى كرة من الرماد . كرة باردة ، تبيّض ، يكسوها الجليد ، تغسلها الشمس ، فتبرق من جديد . إنّها نجمة . نجمة مضيئة في رواق طويل...متاهة مستحيلة . ( لا تعد قراءة ما كتبت . واصل . ) ماذا أقول ؟ ( قل أيّ شيء . ) أيّ شيء أقول ؟

---

* كتاب لجورج باتاي .

ضجرت . ما الجدوى ؟ ما الدافع الحتمي ؟ ما الخارق في هذه الكلمات ؟ لا . غير مهمّ . غير مهمّ إطلاقا . آه ! من لحظة الشراسة هذه . ( أنت تداور . ) نعم . أداور . لأنّي أخاف أن أكشف نفسي للعيون الوقحة . أخاف أن أبدو طفلا شاردا خلف الكلمات والوجوه المتنائية . ( هل هذا أنت ؟ ) ليس أنا . ثمّ ... ما هذه الكلمة السخيفة ؟ " أنا " ! أيّ " أنا " تعني ؟ " أنا " مئات ، آلاف ، ملايين . " أنا " لا وجود له . ( هلاّ قرأت ما كتبت ؟ ) لن أفعل . ( لماذا ؟ ) إلى الجحيم ! ( ومع ذلك أراك مصرّا على الكتابة . كم ورقة كتبت ؟ ) أأنت رقيبي ؟

... عقرب على المرآة . عيناي على صورتها . وجدار . محرّك في أذني . قبل برهة سمعت طلقات. أطفأت المذياع . كنت أريد أن أحلق ذقني ، ثم أحجمت . في التلفون قلت لها كلمات لم أعد أذكرها . لم أكن مسؤولا عمّا أقول ، ولا أنا الآن مسؤول . هراء كلّ هذا ، أليس كذلك ؟ قد يكون . كيف كانت البداية ؟ سؤال مدهش ! وأيّة أهميّة لذلك طالما كلّ شيء يسير نحو نهاية لا بدّ منها ؟

كنّا في مدينة ... كيف أقول ؟ هل كانت حقا مدينة ؟ المهمّ أنّنا كنّا في مكان يشبه المدينة . كان هناك نهر . نعم ، أذكره جيدا . في بعض المساءات كنّا نخرج للمشي على ضفته . غالبا ما يكون الطقس رديئا وباردا . كنّا نبحث معا عن

موضع لا تضيع فده خطانا ، عن أرض ثابتة . لكنّ أعيننا كانت دوما مشدودة إلى السماء . مهما كانت السماء غائبة خلف كتل الغيوم المتراكمة ، مهما كانت بعيدة . لم أجد الوقت لأقول لها إنّ السماء في عيوننا وإنّها لن تسقط بالسهولة نفسها التي يسقط بها شيء ... تسمّيه هي " الحبّ " ، وأسمّيه أنا " اللعبة " . لم أجد الوقت لأقول لها عدّة أشياء أخرى . أو ربّما صمتّ لأنّ الكلام تافه أحيانا ... أو ... لا أدري .

" كراهية الشعر " كتاب لم أقرأه بعد . بودّي لو تأخذه معها حين تأتيني ، هل ستأتي ؟ إيه ، لا . إيه ،لا . إيه ،لا . إيه ... ولم لا ؟ في التلفون قلت لها إنّني أحبّها . هل أحبّها ؟ لست مقتنعا . ولكن ...

لماذا أحاول أن أقنع نفسي بأنّك ستأتين في هذه الليلة وفي هذه الساعة ؟

لماذا أحاول أن أقرأ في النجوم البعيدة اقترابك مني ؟

لماذا حين أسمع خطوات في الرواق أتخيّلك قادمة وأرى يدك تهتزّ لتطرق الباب ؟

لماذا أترصّد كلّ دليل في السماء والأرض وكلّ شارة بين السماء والأرض ؟

لماذا أحاول في النهاية أن أقول هذا الذي لا يمكنني أن أقول ؟

غريب ما يتملّكني . جسمي ينمّل حتى أطراف

أصابع قدمي . يداي ... لم أعد أتحكّم فيهما . الساعة الثانية وإحدى عشرة دقيقة من مساء يوم سبت أو جمعة أو خميس أو اربعاء أو ثلاثاء أو اثنين أو أحد ... لا فرق . دوّن ما تريد . نحن نملي عليك . اشرب شايا . لا تنس أن تغلّي الماء جيّدا ، حتّى تقتل جميع الجراثيم . الساعة الثانية وأربع عشرة دقيقة . اشرب "فرينجانور" ، حتّى لا تشعر بالجوع ، حتّى تظلّ يقظا ودماغك يتوقّد ، حتّى تظلّ حيّا وأنت ميّت . اشرب . ولاتنس أن تغلّي الماء جيّدا ، حتّى لا تصاب بقرح في المعدة . ولا تنس أن تترك النار مشتعلة ، حتّى توقد منها سجائرك . كم بقي في الذخيرة ؟ علبة ؟ علبتان ؟ ثلاثة ؟ أربعة ؟ الماء فاض ، ضع الشاي، عد إلى الآلة ، مت في الآلة ، تشبّث بها . إنها صخرة النجاة الوحيدة . وبعدها ... ليحترق الكون ! اذهب !

حسنا ! تدخل إلى المرحاض . تبول . اقفل زنّارك جيّدا . لا يوجد صخر ههنا . هل تريد صخرة تضعها على بطنك ؟ الباب لن تفتحه . لن تفتح الباب لأحد ، حتّى لو كان الطارق والدك الميّت . حتّى لو طلع من قبره وأتاك في هذه اللحظة . لن تفتح أفهمت ؟ وعلى أيّة حال فلن تحتاج إلى ذلك ، إذ أنه هنا ، هنا . أتفهم ؟ إنه هنا .

هدوءا ! هدوءا ! هدوءا ! انظر ... في الخارج ، السماء زرقاء . أليست زرقاء ؟ وانظر...

في الخارج ، تمرّ السيارات المصفّحة . هل تسمع ؟ ما هذا ؟ هل هو عرس أم مأتم ؟ وأي فرق ؟ يا للبلاهة ! لا يهمّك ما يحدث ، بل دوّن ما نملي عليك . لا تسأل . أصمت واكتب ، أصمت واكتب ، أصمت واكتب .

لماذا تفكر في الساعة ؟ أنت لا تنتظر أحدا . لن يأتي أحد . اذهب وصبّ الشاي في كأس ، ولا تطفئ النار ، دعها مشتعلة ، واذهب ، واشتعل معها ..

ملعقة ، ملعقتان ، ثلاثة . لماذا كل هذا السكر ؟ إنّه تبذير . كلا ، الماء مالح . لا بأس أن تشرب البحر . ألا تريد أن تشرب البحر . اشرب ، اشرب ، اشرب ، واصمت ، ولا تقل شيئا ،بل دوّن ، فنحن نملي عليك .

خرج صاحبك من السجن . دخل صاحبك الآخر سجنا آخر . وأنت ... ألا تفكر في زيارة دار الضيافة ولو مرّة ؟ الموت ! لا ، لا . معاذ الله ! أنت تعادي الموت ، أليس كذلك ؟ هل تحبّ الحياة إلى هذا الحد ؟ أيّ حياة تفضل ؟ هل يعجبك أن تضع مؤخرتك على صخرة في صحراء من الصحاري ؟ لا ؟ أنت لست متصوّفا طيّب ! إذن ، ماذا تريد ؟ ماذا تريد في النهاية ؟ هل تريد أن تقول شيئا؟ ألديك شيء تقوله ؟

كل ما يحدث الآن هو أنك ستجد نفسك في الطريق إلى كوكب المرّيخ . هل فكرت من قبل كيف ستنتهي

هذه القصّة ؟ كلاّ . بل كنت تبحث انذاك عن بداية أخرى ممكنة لحياة مختلفة عن كلّ ما عشته ، وفي الطائرة ،كنت تتصوّر أشياء رائعة ، وكنت تمسح عن جبينك غبار الرحلة الماضية . وبعينيك كنت تبحث في ما وراء السحب عن الصحراء التي طالما قرأت عنها ، وتتذكّر "لورنس العرب" وأعمدة جنونه السبعة . كلّ شيء كان منذ البدء رهن إرادتهم . وجودنا وعدمنا ، فكرنا وتاريخنا وذاكرتنا .حتّى الثورة التي اعتقدنا أنها ثورتنا لم تكن سوى خطة مدروسة في معاهدهم الحربية للمكر بنا :"إنّ ثورة الحسين في الحجاز ستكون مفيدة لبريطانيا لأنّها تتمشّى مع الاهداف الحالية : تحطيم الكتلة الإسلامية والتغلّب على الامبراطورية العثمانية وتمزيقها . أما الدول التي ستقام لتخلف الأتراك فستكون غير ضارة بنا كما كانت تركيا قبل أن تصبح آلة في يد الألمان. بل ان العرب أقل استقرارا من الأتراك فإذا أحسنت معالجتهم ، ظلّوا في حالة تفرّق سياسي ، ولايات صغيرة متحاسدة عاجزة عن الاتحاد . " ليس هناك أوضح من هذا الكلام . وحين حلت الطائرة في مطار دمشق ، ووجدت نفسك ذاهلا وسط الليل الشرقي الكئيب ، والتفتّ تبحث عن صديق لم تجده ، كان كلّ شيء يبدو مثل حلم يتحقق أو مثل مصير لا بدّ منه . وها أنت تركب ( الباص ) وتحملق في الشوارع الغارقة في العتمة . هذه دمشق ، وذاك بردى ، وهؤلاء أبناء عمّك البعيدون.

وها أنت مقذوف في لحظة فريدة وسط هذا العالم الذي تعرفه دون أن تكون عينك قد رأته من قبل . ثمّ تنزل في ساحة الشهداء . تقف على الرصيف وحقيبتك بين رجليك .

من أين أدخل المدينة ؟ الناس نيام . الناس يقظون . إنّها الثامنة مساء . الحيطان صفراء كئيبة . وأنا المتجوّل في هذا الكون . أنا السائح في هذا التاريخ . الرصيف هو الرصيف في كلّ مدينة . المقاهي هي المقاهي . سيارات التاكسي . الضوء الأحمر ، الأخضر . أمشي ، أسير الهوينى . قريبا أصل . ذات يوم سوف أصل . وإذا لم أصل فسيصل سواي . هذه المدينة تنفتح لي كنيلوفر الليل . سوف أحبّها كما أحببت عشيقاتي الأخريات . سوف أحبّها لأنّي سأكتشف نكهتها الفريدة والقاتلة . " بينيلوبة "، تنتظر يوليس الشقيّ . هل يعود يوليس ؟ ولماذا يعود ؟ وأين ؟ وحتّى إذا ما عاد ، فإنّ الشيء نفسه سيحدث ككلّ مرّة . كهذه المرّة ، كتلك . سوف يجد نفسه سالكا الدرب إلى مدينة أخرى . " لا شيء يتغيّر " قالت . بلى ، بل كلّ شيء يتغيّر باستمرار . " خذ خاتمي وحاذر أن تضيّعه ، وحاذر أن تنساني . " لن أضيعه . لن أنساك . " خذني معك ، سوف أموت . لن آخذك معي ، ولن تموتي . " سوف أفتح لك كتاب التحوّلات الصيني . سوف أقرأ لك حظك في التارو . ما هو برجك ؟ " برجي العقرب . لن أنسى

شيئا . نسيت كلّ شيء .

حدث كل ذلك بسرعة عجيبة . هل كانت تلك بيروت ؟ ( مكان لا يشبه أيّ مكان آخر! ) كانت السيّارة تشقّ الشوارع وكنت ترى أناسا مدجّجين بالسلاح يسيرون على الأرصفة . طوابير من المقاتلين بأزياء مرقّطة . شاحنات تحمل الذخيرة والمدافع . رشاشات . أعلام . ملصقات حائطية . فجأة ، تتوقّف السيّارة أمام الحاجز . يستظهر السائق ببطاقته . يفسح المسلّحون الطريق . تمرّ السيّارة . وفي لحظة ، أفقت على عالم مختلف تماما . هل كنت تعتقد أنّك في السينما . هل كنت مجرّد متفرّج ؟ لماذا وقفت إذن جامدا على الرصيف فيما الناس يتراكضون من حولك هاربين من الرصاص الملعلع ؟ ... " ابتعد . سوف تموت . " " انج بجلدك يا حمار . " " لا تقف هناك . ماذا دهاك ؟ " " اركض . "

– ولكن ... ماذا يحدث ؟

قالت لك الفتاة ذات العينين السماويّتين : " ابتعد عن الكورنيش . إنّهم يتقاتلون . "

– ولكن من هم ؟

– لا أعرف! مسلّحون! ...

لا أحد يعرف . لكنّك ركضت مع الناس . هل فهمت الآن ؟ انّها لعبة للكبار تسمّى : الحرب!

– من أنت ؟ ما الذي أتى بك إلى هذا المكان ؟ إنّه الجحيم!

– الجحيم ؟ إذن ، هذا هو الجحيم!

## باريس . خريف 1979

أشياء عديدة وقعت منذ أربع سنوات . أشياء عديدة تغيّرت ، منذ نزلت تلك الليلة في محطة ليون ... منذ دخلت ذلك البار الذي يقع في طرف الشارع ، وطلبت قدح بيرة ووضعت يدي على خدّي ، وشردت في الليل . باريس لم تتغيّر ، أنا الذي تغيّرت . صرت الآن أفكر في الرحيل . لم يعد ممكنا أن أعيش في هذه المدينة . " هي " تعرف ذلك . هل هي تدرك مدى حزني ؟ ليس لأنّني سأرحل ، فهذا محدّد من قبل ، بل لأنّنا سنفترق . وسيسقط حبّنا في المسافات إلى هاوية النسيان . هي تحاول أن تقنعني أن البحار لا يمكن أن تفرّقنا ، وأنا لا أؤمن بما لا أراه . لم يبق لي شيء هنا . ما الذي يمكن أن يشدّني إلى هذه المدينة سواها هي ؟ لكن عليّ الآن أن أتخلّص من هذا الحبّ أيضا ، لأنّ حياتي ستتواصل في مكان آخر . رغما عن كلّ شيء ... يجب أن أرحل .

# الاغتيـــال

أغلق السيد قاسم الملفّ الذي أمامه ، وغرق في مقعده الوثير مغمضا عينيه ومحاولا الاسترخاء . كان يشعر بتوتّر غريب في أعصابه وتصلّب في عنقه . هل سبب ذلك الإرهاق ؟ ممكن . لقد كان العمل مضنيا جدّا هذه الأيّام الأخيرة . بيروت لم تعد تلك المدينة التي يعرفها منذ تسع سنوات . إيه ، يا بيروت ! هذه الحرب لا تنفع . ومع ذلك فهي لن تنتهي بعد يومين . مع ذلك ستظلّ حرب الاستنزاف متواصلة والسيارات المفخّخة وسلسلة التفجيرات التي لا حدّ لها . كلّه ضروري في الواقع . إنّه ما لا بدّ منه ، حتّى يتغيّر الوضع ، حتّى تتغيّر الخريطة . لكن كيف ستتغيّر ، وإلى من ستؤول القضية في النهاية ؟ هذا ما لا يمكن أن يعرفه أحد . لكن التاريخ في النهاية هو الحرب الحرب هي التي تصفّي كلّ شيء . الحسابات الصغرى والكبرى . هذا ما يدركه جيّدا جميع الناس . الجبناء والخونة فقط يقفون في وجه التغيير . أوف ! حتّى هؤلاء الفلسطينيّون لا يدركون الحقيقة . الفلسطينيون ؟ ماذا تراني أقول ؟ بل هم لا يعرفون شيئا عن اللّعبة . يتقنون البكاء

ويتقنون الحزن ... لكنّهم لا يتقنون الأهمّ : تمييز أصدقائهم الحقيقيّين من أعدائهم ! شياطين ! ومخادعون ! يحدّثوننا عن الثورة ليأخذوا المال ويتصرّفون كأنّهم يريدون دولة لهم وحدهم ! يعتقدون أنّ الأمور بهذه السهولة ! هل نحن بحاجة إلى دولة أخرى في هذه المنطقة ؟ لا ، لا . اسرائيل هي القضية ، هي الدمّل . اسرائيل التي يجب اجتثاثها من الخريطة كما تجتثّ النبتة الطفيلية . آه ! تعبنا والله ! تعبنا ولم نعد نعرف ما هو الأهمّ ! ولكن ... أنا ليس عليّ أن أدخل في هذه المهاترات . إلى الشيطان ! يجب أن أقوم بشغلي وحسب . إنّهم لم يضعوني على هذا الكرسي لكي أتفلسف ، بل وضعوني هنا لكي أخدمهم بطاعة عمياء . يجب أن أكون موظّفا مثاليا . لا يزال المستقبل أمامي . والصبر ،الصبر ، لا بدّ من الصبر ، حتّى لو أنّي لم أعد أحتمل العيش في هذا الجوّ التعس ! لكنّي لو فتحت فمي الآن لأطلب نقلي من بيروت لكان ذلك سيّئا جدّا ! السفارة ! أريد سفارتي أنا أيضا . ما معنى أن أقضي عمري في خدمتهم وأنا لا أزال في هذه الرتبة ، **سكرتير** أول ؟ " لعنة على أختهم " ! يجب أن أكون سفيرا . نعم . يجب ذلك . ألم أستحقها بعد ؟ ماذا يريدون أكثر ؟ هل ينتظرون منّي أن أقصف تل أبيب بمفردي وأمسحها من الوجود ؟ أو ربّما كانوا يتوقّعون أن أصفّي جميع

عملاء "الموساد" الذين في بيروت واحدا واحدا ؟ هه ! لنكن جادّين . ولكنّي أحلم بحياة مطمئنّة في ظل سفارة هادئة في إحدى العواصم الأوروبية السعيدة . تكفيني كلّ هذه الحروب . لقد أخذت نصيبي وأكثر . يا بيروت ! يا أيّام شقائي ونكدي !

فتح عينيه ، وتطلّع في ساعته . الواحدة وخمس عشرة دقيقة . نزع نظّاراته الطبيّة ومسحهما بمنديل ورقي ، ثم أعاد وضعهما على عينيه . أشعل سيجاره وسحب منه نفسا عميقا ، ثم وقف متّجها إلى خزانة الكتب . كانت تلك هي الساعة التي يشرب فيها كأسه العادية قبل مغادرة السفارة إلى فندقه في الروشة .

انحنى ليفتح درجا تحت رفوف الكتب ، وظلّ برهة يفكّر : "بلاك ـ ند وايت" ، أم "فرموث" ، أم "براندي" ، أم "باستيس" ؟ قرّر أن يشرب كأس باستيس ، فهو فاتح للشّهية قبل الأكل . وصبّ الشراب في كأس ، ثم اتّجه نحو المكتب ليضغط زرّ "الانترفون" ويطلب من السكرتيرة أن تحضر له بعض مكعبات من الثلج .

وقف ينظر إلى سمكاته الصغيرة الحمراء . غطّس سبّابته في الماء ، وجعل يديرها والأسماك تفر في كل اتجاه وترتطم بجنبات الحوض البلوري .

طرقت السكرتيرة الباب ، فقال : "تفضلي" . دخلت تحمل آنية الثلج وزجاجة ماء في طبق .

وضعت الطبق على الطاولة الصغيرة بجانب المكتب . كان السيد قاسم يرمقها بنظرات جانبية . هل تقبل لو عرضت عليها ؟ لعلها لا تنتظر مني سوى ذلك ! أو .. لا . كلاّ . لنترك هذا الموضوع . ثمّ إنّي لست متيقّنا من أنّها ستقبل لو فعلت . ربّما ... ربّما كان لها خطيب أو عشيق . معقول جدّا أن يكون لها رجل . لا يمكن لامرأة في مثل سنّها وجمالها أن تعيش بلا رجل في بيروت . لعلّها تحبّه . لعلّها ستتزوج قريبا . لكن ما المانع أن أكون عشيقها ؟ عشيق ليلة . ليلة واحدة . لست أطلب كثيرا . ليلة واحدة تكفيني ، فما المانع ؟ لكنّها لم تظهر لي يوما أيّ نوع من التودّد . هي تبتسم دائما . ولكن . أليس الابتسام واجبا من واجباتها اليومية ؟ هي تبتسم للجميع ، لكنّ ذلك لا يعني شيئا . أمر من اثنين : لو عرضت عليها ذلك ، فهي إمّا أن تقبل لأنّها تخاف أن تفقد شغلها ، وإمّا أن ترفض وأفقد احترامها لي . وفي الحالة الأولى ، لن يكون قبولها عن طيب خاطر ، بل سوف تفعل ذلك كأنّها تقوم بأحد واجباتها . كأنّها تفتح لي ملفّا ! باختصار ... الأفضل أن أغمض عيني عن ذلك الآن . ربّما مع الأيّام ... هه ! من يدري ؟

خرجت السكرتيرة ، واتجه السيد قاسم إلى الطاولة الصغيرة ، ووضع مكعبين من الثلج في كأسه ، وأضاف قليلا من الماء إلى "الباستيس".

أخذ يترشّف الشراب بأناة محدّقا في حوض الأسماك الصغيرة .

ماذا تفعل خديجة الآن ؟ لعلها تتغدّى مع الأولاد ، وتفكّر فيّ في هذه اللحظة بالذات . يجب أن أكتب إليها رسالة . لقد وعدتها بذلك . وهاقد مرّ شهران منذ عادت إلى البلاد وأنا لم أكتب حرفا واحدا . وأين أجد الوقت ؟ صحيح إنّني أتلفن بين فينة وأخرى . قبل أسبوعين قالت لي إن عادلا يسعل . الطبيب لم ير في ذلك خطرا ، ولكنّه مع ذلك أعطاها كميّة لا بأس بها من الأدوية . ترى هل شفي الآن ؟ إنّني قلق على هذا الولد . يجب أن أتلفن اليوم . سوف أطلب مكالمة بعد الظهر من الفندق . والآن لأكمل هذه الكأس وأنصرف . أحسّ بتعب شديد .

أفرغ السيد قاسم بقية كأسه في جوفه ،ومشى نحو مكتبه . وضع الملّف في الدرج ، وأقفله بالمفتاح . ثمّ فكّر لحظة أن يحمله معه إلى الفندق ليتمّ دراسته ، لكنّه تخلّى عن الفكرة لعلمه أن ذلك ممنوع . هل نسي شيئا ؟ كلاّ ، لم ينس شيئا . وضع مفاتيح سيّارته في جيبه ، وخرج من المكتب .

كانت السكرتيرة جالسة تتصفّح مجلّة نسائية . أغلقت المجلّة لدى مروره ووقفت . حيّاها فردّت التحية بأدب . واتّجه السيد قاسم نحو المصعد الذي كان مفتوحا ، فدخل وبدأ المصعد بالنزول إلى

الطابق الأرضي ، ثم انفتح الباب وخرج السيد قاسم . حيّاه الحاجب والجرس فأومأ برأسه ، ومشى نحو سيارته الرابضة قرب السفارة . فتح الباب وجلس خلف المقود .

دار المحرك وانطلقت السيّارة عبر الشوارع باتّجاه الروشة . كانت الطريق الرئيسية مزدحمة بالسيارات ككلّ يوم في مثل هذه الساعة . لذلك كان السيد قاسم يسلك طريقا أخرى جانبية . إنّها أطول ، ولكنّها في الواقع أقصر بسبب الازدحام الشديد في الطريق الأخرى ، وانعطف إلى اليمين .

لم يلاحظ السيّارة السوداء الكبيرة التي كانت تتبعه منذ فترة . كان يركبها أربعة رجال . ولكنّه لم ينتبه إلاّ حين تجاوزته السيّارة ، وتوقّفت فجأة أمام سيّارته سادّة الطريق ، فضغط على الفرامل ، وامتدّت يده غريزيّا لتتناول المسدّس المخفي تحت المقعد . غير أن الرجال الثلاثة الذين نزلوا بسرعة البرق من السيّارة السوداء لم يتركوا له الوقت لاستعماله ، إذ فاجأته طلقات المسدّس الرّشاش التي شقّت الزجاج الأمامي وشقّت رأسه .

# المنتهى

لا أدري ، ولكنّه كان يدفعنا إلى هذا الاعتقاد ، وكان لا ينقطع عن ترديد نفس الكلمات بينما تدور عيناه الضّيقتان الخبيثتان ألف دورة في الثانية ، ويقول : " ها ! وجدتها ! ويجرع جرعتين من قدح البيرة ، ثم يحكّ أرنبة أنفه الشبيهة برأس موزة وينبري يقلّم أظافره ، فتقول له الآنسة ثريا : " كف عن أحاديثك التافهة ، أو قم من هذا المكان . " فيلتفت إليها وتدور عيناه مرّة أخرى ويجرع جرعتين أو ثلاثا من قدح البيرة ويصيح : " ها ! حقّا وجدتها هذه المرّة ! "
أمّا عن الموجودة ، فلا تسأل ! إنّها أغلب الأحيان طريقته الخاصّة في بدء حديث لا ينتهي تقطعه بين فينة وأخرى طرطقة لسانه ، وغالبا ما نراه يقف مذهولا فجأة ، وكأنّ شيطانا مسّه في ذلك " المكان المقدّس" ، ثم ها هو يركض في اتّجاه مكان لا يعرفه أحد ، ليعود بعد أيّام برزنامة كبيرة ، يورّقها ويوزّع الأوراق على زبائن المقهى ، مع الابتسامة التي يؤمن إيمانا راسخا أنّها ضرورية لتجلب إليه بضع ليرات ، يفرشها أمامه على الطاولة ، ولا يغادر المقهى إلاّ بعد

أن يسلّمها للقهواجي مقابل كأسي بيرة ، فيما تدور عيناه دورتهما المألوفة لتحطّا على امرأة مّا ، ولا يهمّ من تكون المرأة ، فهو قد قرّر أن " يهديها ابتسامة وقصيدة شعر ! " هكذا يقول ، ويضع أمام " المحظوظة " ورقة من رزنامته ، ويمضي إلى غيرها . وهكذا دواليك إلى أن يتمّ " مهمّته " التي كلّفه بها شيطان مّا !

ذات يوم ، جاءت الطائرات الإسرائيلية لتقصف بيروت ، وانهارت العمارات والبيوت في حيّ الفاكهاني ، وفقد أباه وأمّه وإخوته وأهله جميعا بين ليلة وضحاها . وفي الغد ، وجدوه يهذي على الكورنيش . كان عاريا إلاّ من سروال ، وكانت بيده رزنامة يورّقها ويوزّع الأوراق على السابلة . هكذا بدأت قصّة جنون الأستاذ ماهر الأسعد ، مدرّس الجغرافيا في معهد " الصّنايع " .

قمر تهالك فوق وجهي منهكا

ليل المدائن لا يفوت

والطفلة الحمراء أشعلت السراج

وأسرجت لي مهرة البرق المغيب

هذا شتاء آخر

يأتي من الحجر العجيب

قالت الآنسة ثريّا :" أنا لم أعد أحتمل وجوده بيننا . أكاد أجنّ ! " ونهضت .

نظر إليها بعينين شجيّتين . لقد التقط الذّبذبة المشحونة بشتّى الأحاسيس المتراوحة بين الحبّ

والكراهية ، وفهم أن ثريّا لا تكرهه ! إذن ، ها هو يجد أخيرا نصف روحه المفقود !

خرجت ثريّا من المقهى ، اندفع وراءها . كان المطر يزخّ في الشارع . من خلال بلّور المقهى ، رأيناه يهرول وراء سيارة " السّرفيس" التي توقّفت لحظة لتركبها ثريّا وتغيب شهرا كاملا .

وحين ينقضي الشهر ، تعود ثريّا إلى المقهى لتخبرنا أنها تزوّجت الأستاذ ماهر الأسعد الشاعر ، وأنها تعدّ الآن معرضا للرسم المائي ، وأنها تنوي السفر مع زوجها إلى آمستردام ، حيث ستقدم مائيّاتها للجمهور الهولندي ...!!!

أنا لم أقل شيئا .

لكنّ أبا الكرم هزّ رأسه ، وقال : " هيه ! ولم لا تجلسين وتحدّثيننا بالتفصيل ؟ متى تزوجت؟ وكيف تزوجت ؟ وأين زوجك المحترم ؟ ولماذا لم تشرّفينا بدعوة ؟ ألسنا أصدقاءك ؟ الناس لا يتزوّجون كلّ يوم ! ما رأيك أنت يا استاذ حلمي ؟ "

رفع حلمي عينيه عن الجريدة . حدّق فيهم برهة . كان واضحا أنّه يفكّر في شيء آخر . ظلّت هي واقفة تحملق فيه . كانت كأنها تنتظر شيئا مّا غير محدّد ، وكانت تنتظره من حلمي بالذات . لكنه خفض عينيه ، وعاد يتطلّع في أعمدة الجريدة ، وكأنّه لم يسمع أو ير شيئا .

مرّت لحظات صمت . جلست شريًا . جاء (القهواجي) . طلبت قهوة بلا سكر . ذهب (القهواجي) ليحضرها . في الخارج ، كان المطر يزخّ ، والسيارات تمرّ ببطء في صفّ طويل . دخل أربعة جنود على رؤوسهم القبّعات الزرقاء ، جلسوا في ركن صامتين . وفي الطاولة المجاورة لطاولتهم ، كانت فتاتان سمراوان طويلتان تتحدّثان بخفوت ، وتتطلّعان بين فينة وأخرى في وجوه الجالسين . جاء (القهواجي) بالقهوة : "كيف الحال آنسة ثريّا ؟ من زمن لم نرك ..." "ماشي الحال ! شكرا !". انصرف الرجل . قال أبو الكرم : "هل سمعتم ؟ لقد فجروا جريدة "المساء" !" لم يجبه أحد . من البلّور ، كنت أشاهد السيارات تمرّ ببطء في صفّ طويل ، والمطر يزخّ دوما . مرّت شاحنة تحمل جنودا ، وتلتها شاحنة ثانية ، فثالثة ، فرابعة فخامسة ... انفجرت ضحكة طويلة في المقهى . التفتّ . رأيت الفتاتين السمراوين تجلسان إلى طاولة "القبّعات الزرقاء" . نظر إلى الساعة . السابعة مساء . طوى حلمي جريدته ، ووضعها أمامه . نادى القهواجي . جاء القهواجي . "جن تونيك لو سمحت" . راح القهواجي ليحضر الـ "جن تونيك" . تذكّرت الفتاة التي أعطيتها موعدا في الساعة السابعة . لم تأت . لماذا لم تأت ؟ كانت عيناي تتطلّعان في الباب البلّوري . مطر على بيروت . السيارات طابور طويل ... ببطء ... تمرّ .

قال حلمي : " يجب أن أذهب . " لكنّه لم يتحرك . ظلّ صامتا . تنحنح ، أمسك الجريدة التي على الطاولة ، قلبها بسرعة ثم أعادها إلى مكانها . قالت ثريّا : " سوف أعرض في آمستردام آخر لوحاتي ... " انفجرت ضحكة طويلة في المقهى . كان احد ذوي "القبّعات الزرقاء" يغازل إحدى الفتاتين . جاء ( القهواجي ) . وضع الـ " جن تونيك " على الطاولة . " لم نر الأستاذ ماهرا من زمان " قال أبو الكرم ، محدّقا في ثريّا . ظلت صامتة . عيناي معلّقتان بالباب . السيّارات ، المطر ، الجنود ، المظلّات ، الناس ، الكراسي ، الساعة السابعة ودقيقتان وعشر ثوان . " نسفوا جريدة المساء " . " من فعل ذلك ؟ " انفجرت ضحكة طويلة في المقهى . قال حلمي : " يجب أن أذهب." لكنّه لم يتحرك . كان يمتصّ الشراب ويدخّن متفرّسا في الوجوه . فيم يمكن أن يفكّر ؟ رجل غريب ! قلت في نفسي . دخلت الفتاة التي أعطيتها موعدا . رأتني . جاءت . وقفت لاستقبالها . " أهلا ! " " أهلين ! " " جلسنا . " الأستاذ حاتم أبو الكرم ، شاعرنا الكبير . الآنسة ثريّا ، رسامة غنية عن التعريف . الأستاذ حلمي ، صحفي و ... طبعا ! خادمك ، يوسف عبد الوهاب . " قلت ذلك بسرعة ، كمن يردّد محفوظات . " أقدّم لكم الآنسة أحلام ... " لم أكن أعرف عنها شيئا أكثر من ذلك . التقيتها في الظهيرة على الكورنيش .

كانت واقفة تنظر إلى البحر . قلت لها : " البحر جميل في الخريف ! " قالت : " نعم جميل . " " اسمي يوسف عبد الوهاب ... صحفيّ ، وأنت ؟ " جاء ( القهواجي ) . " ويسكي للآنسة أحلام ." راح ( القهواجي ) . قال الأستاذ حلمي : " يجب أن أذهب . " لكنّه لم يتحرّك . غريب هذا الرجل ! إنّه غير طبيعي إطلاقا . لا شكّ أنه ينطوي على سرّ مّا . لكنّه لا يتكلّم أبدا . صامت دوما وبارد كالحجر . لم يكن هكذا في البداية . السيّارات تمرّ ببطء . " نسفوا جريدة المساء . من يدري على من الدور في المرة الآتية ! " انفجرت ضحكة أخرى في المقهى . فجأة ، يدخل ماهر ملتفّا في معطف رمادي ، يأتي إلى طاولتنا ، يجلس . " أين كنت ؟ " قال أبو الكرم . " أعمل الآن في وكالة أنباء ... " مبروك ! " أخرج من جيبه رزنامته : " سوف أسمعكم آخر قصيدة ... "

أيّها العصفور الوحيد
يا سيد الشجرة الشرقية
إمنحني لسانك
لأقول ألمي بفرح
إمنحني لسانك الحكيم سيدي
لأفرح
لأفرح
في ألمي

# شارع الموت السَّريع

لم تكن لديه رغبة في العمل . ومع ذلك فقد كان ضروريّا إعداد هذا الملفّ . أحسّ بضيق في صدره ، فنهض واتّجه إلى النافذة . فتحها ، وظلّ واقفا برهة ينظر إلى الشارع .

إنّها امرأة عذبة وذكية . امرأة كما يشتهيها كلّ رجل . ومع ذلك ، فهو لا يحبّها كما يحبّ أيّ رجل امرأة . لا يزال ذلك الحبّ القديم يعذّبه . هل يمكن أن يرى الأخرى في كلّ امرأة ؟ هل يعيش حياته بهذه الطريقة ، حيث لا يرى الوجه الذي أمامه إلاّ من خلال وجه آخر ؟ ذلك الوجه الذي مضى ، هل يعود ؟ ها هو يعود في وجه ريتا . مسكينة ريتا ! لو تدري أنّه حين يعانقها إنّما يعانق امرأة ميّتة ! ما هذا الحبّ الفائح بالموت ؟ ما هذا بحبّ ! إنّه جنون ! مرض ! عذاب لا آخر له ، كعذاب هذه المدينة المحترقة .

هي ترسم ، وهو صامت . فاتح عينيه على السقف العاري ، وصامت ... كميّت . طويلة وممشوقة ، ذات شعر كستنائيّ منسدل على كتفيها . فستانها ... ما لون فستانها ؟ هل يتذكّر لونه ؟ يعرف أنّه

فستان جديد . يعرف أنهما سيذهبان للعشاء في مطعم صغير على الروشة . بعد ذلك ...

" بعد ذلك سنرى . " قال .

ابتسمت . قبّلته وابتسمت . ثم ابتعدت ، وعادت إلى لوحتها .

– والأخبار ؟

– أية أخبار ؟

– لا جديد ؟ إنّهم يتقدّمون !

– من هم ؟

– الاسرائيليّون ... في الجنوب .

– إنّهم دائما يتقدّمون . ومتى كانوا يتقهقرون ؟

صمت .

– لم أر يوسف من زمن . لعلّه في رحلة . في المقهى لا جديد ، سوى أنه يوما بعد يوم يتحوّل إلى مستشفى مجانين . يا إلهي ! هل سنجن جميعا ؟ هل هذه نهايتنا ؟

– في الجريدة ، هذا الصباح في الجريدة ... هذا الصباح ، لغّموها . انتبه أبو عبّاس إلى ذلك . لولاه ... لولاه لغدونا جميعا في عداد الموتى ... شهداء ، نحن أيضا . شهداء ... ماذا فعلنا ؟ كلاّ . أنا لست غبيّا . جميعنا مسؤولون عمّا يحدث ، ولا أحد بريء . لا أحد بريء . طالما لم يتغيّر شيء هنا ، في هذا العقل ، لن يتغيّر شيء في عالمنا . القضية في العقل . نعم . القضية

كلّها في العقل . عقلنا مصاب بلوثة . وهو الآن يعاني من نزيف داخلي . هذا الانتحار البطيء . هذا السّقم الباطنيّ . هذا السرطان الذي يفترسنا . شيطان يحملنا جميعاً . ليس فينا واحد يستحقّ الحياة . نحن جديرون بمشنقتنا . جديرون بجلّادينا . نحن وإياهم سواسية . هم يعرفوننا ونحن نعرفهم . منذ زمن كان هذا . منذ زمن بعيد . نحن متواطئون مع الجلّادين . صمتنا ، خضوعنا ، رضانا ، طاعتنا ، تواطؤ . نحن متواطئون مع جلّادينا على موتنا . هذا هو الدّاء الذي ينخرنا . هذا هو الدّاء الذي لا فكاك منه ولا خلاص .

– ليتني كنت يائسة . اليائس انتهى من الدنيا بأسرها . طواها كما تطوى جريدة قديمة ووضعها في زاوية مظلمة ، ثم انزوى ينتظر موته . وربّما سار إليه عن طيبة خاطر . كلاّ . أنا لست يائسة . أنا متعبة فقط . أشعر بتعب شديد . تعب لا حدّ له . لم أعد أفكّر . لم أعد بحاجة للتفكير . لماذا التفكير ؟ ماذا يجدي التفكير ؟ الى أين قادني التفكير ؟ إلى أين يمكن أن يقودني ؟ جحيم آخر هو التفكير ، جحيم أسوأ من كلّ جحيم . انتهى كلّ شيء . ها أنا أرسم . ماذا أرسم ؟ كنيسة أم جامع هذا ؟ مدينة أم ماخور ؟

عالم أم مقبرة ؟ لا أعرف . لم أعد أعرف . لست بحاجة إلى أن أعرف . لم أعرف ؟ أرفض .

إنّي أرفض أن أعرف . ها أنا أصمت . الصمت والبلاهة . سيّدتي البلاهة ! هل ترضين بي خادمة ؟ أنا عبدتك ، جاريتك . إلهتي البلاهة ! هذا زمنك .

– أنا مخطىء في حقّها . لست أستحقّها . لست أستحقّ حبّها . أنا نذل ، كاذب ، معتوه . أحبّ ميّتة . كلا . أنا لا أحبّ حتّى الميّتة ، بل أحبّ موتي . نعم . هذا كلّ شيء . موتي يسحرني . حين أغمض عينيّ أراه قريبا . أبيض ، أشيب الشعر ، كأنّه لصّ . إنّه يجلس على حافة النافذة ويخاطبني . ساعات وساعات نتحادث كصديقين حميمين . موتي ! ها أنا أنظر إليه ، أراه ، إنّه هنا . هه ! ألست هنا ؟ تعال ! ألست ؟ ...

– الموت . الخلاص . عالم النسيان . التحوّل . خدر عميق . رحلة إلى بلاد السحر . وهم يتقدّمون . دائما يتقدّمون ، يتقدّمون ، يتقدّمون . لا سبيل إلى الخلاص . لا سبيل إلى السحر . لا سبيل حتّى إلى الجنون . سوف يأتون .

أغلق النافذة . لن تأتي هذه الليلة أيضا .

.................................................................................

الثامنة والنصف من يوم الأربعاء ...

لماذا هذه المذكّرات ؟ وما أهميّة الكلام والكتابة حين تكون الروح البشرية أرخص من روح كلب سائب ؟ انتهت الطلقات ، انتهت الكلمات ، وخيّم جو ثقيل على المدينة . أتساءل أحيانا :

أين تقع هذه المدينة ؟ هل هي حقيقية ؟ بل هل أنا حقيقي ؟ لا شيء فيها يشبه المدن الأخرى . آه ! ها أسمع لحنا . الجيران ما زالوا قادرين على سماع فريد الأطرش ! " عش أنت ! " إنّهم محظوظون . أنا لم أعد قادرا حتّى على سماع صوتي . يسمّمني صمت حارق . صمت غبيّ . يسمّمني إلى حدود الانفجار . أتوقّف عند هذه الكلمة . أتساءل : ترى ماذا كان يعني لي الانفجار في السابق ؟ أشياء كثيرة : موت ، عنف ، دمار ، أيد طائرة ، رؤوس ، صحون ، ملابس ، ملاعق ، أحذية ، أثاث ... في السماء !

وحين كنت قادما إلى البيت مع يوسف منذ أسبوع قلت له :

– أتعرف أنّني أحيانا أضحك ، ثمّ أتمالك نفسي وأقول : أوقف هذا الضحك الغبيّ . إنّه غير طبيعي ! ؟

قال :

– سبب ذلك ترسّبات في لا وعينا . أذكر أنّ أمّي كانت تقول إذا صادف أن ضحكت ضحكة طويلة : " خير ! إن شاء الله ! "

– صحيح ! هذا ما أذكر أنّ أمّي تقوله ايضا .

– إنّهنّ لفرط ما عانينه ، ولشدّة ما بكين في حياتهنّ صرن يتطيّرن حتّى من اللحظات السعيدة والقليلة التي يعرفنها .

وصمت صاحبي .

والآن أدركت شيئا لم أكن قد فكّرت فيه من قبل ، ولا تصوّرته . ( أتابع الكتابة بجهد . يتنازعني الصمت والانفجار . ومع ذلك أعرف أنّني سأموت بارتفاع الضّغط إن لم أتحدّث ولو لهذه الورقة ... ) هربت الفكرة . يجب البحث عنها من جديد . ماذا قلت ؟ ماذا أقول ؟ ماذا سأقول؟

..........................................................................

التاسعة والربع . الزمان والمكان نفساهما .

طلقة صغيرة أعادتني إلى حيث لم أكن ، ( أي إلى شقّتي ) . يكفي أن أنهض من خلف هذه الطاولة ، يكفي أن أخطو بضع خطوات حتّى المطبخ وأفتح الثلاّجة ، وأسحب منها علبة بيرة ، أفتحها أشرب ، الحرارة لا تطاق ، الجوّ ثقيل ، لماذا لا أفتح الراديو ؟ كلاّ . أو ، لنضع كاسيت . كلاّ . ماذا إذن ؟ طق ! عد إلى مكانك . اجلس واكتب .

وأجلس ، وأكتب . ولولا هذا ، أعرف أنّني لا محالة سالك الدرب إلى " العصفورية " . ولكن لا ... أعرف مع ذلك ... أعرف جيّدا أنّه يجب أن أتمسّك بعقلي ووعيي وأتشبّث بهما مثلما يتشبّث غريق بخشبة النجاة الوحيدة ...

الله ! نحن الآن جالسون في صالون العقل ! وهي الساعة التاسعة وخمس وعشرين دقيقة من نفس الزما... طق ! دم ! ددم ! دددددم !

أجلس على الأرض . أنهض . أدور ككلب لاهث وراء عظم خيالي ، جوعان ، سائل الريق . انفجار.

انفجاران . تشايكوفسكي . شمعة مطفأة . نظارات .
ألتقط كلّ ما يسقط تحت بصري ،وأطرح على الورقة ،
جسدا ميتا . آخر ما رأيت ، آخر ما سمعت ،
آخر ما ... دم !

عاد الصمت من ج ... ليتني ما قلتها !
أتنفّس ؟ بلى . أنا حيّ . انفجار ، اثنان .
صمت . إيقاع غريب ! الموت غريب ! الحياة غريبة !
وغريبة هذه الموسيقى ! غريبة هذه السماء ! غريب
هذا الليل ! هذا ال ... كلاّ . لا شيء غريب . كلاّ .
هدوء ! لنعد حيث كنّا . المدينة هي المدينة
دوما ، والناس هم الناس . بسطاء وفقراء ،
وأغنياء ، وسذّج ، وأذكياء ، وعباقرة بالقوة ،
وأنبياء وهميون ، وقطّاع طرق ، وفراعنة ،
ومنكوبون ، وموتى ، ومعذّبون ، و آآآآآآآآآآآآآ
هههههه ! وجوعى ، وشرد ..................................

...........................................................................

تمام الساعة العاشرة . بدأت الأفكار تتّضح .
لا أدري لم فكرت اللحظة في حيّ بن يقظان ...
لا بدّ

...........................................................................

العاشرة وإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية
وأنا مغتاظ والضوء مشتعل والجيران صامتون والفوطة
تتدلّى على الشريط في ( البلكون ) والسماء بلاغيوم
أو نجوم ، ولا أريد أن أفتح الراديو ، وأرغب
في تدخين سيجارة ويمنعني الكسل أو شيء آخر

غامض عن إبعاد يدي ولو للحظة واحدة عن هذه الحروف التي أنقرها ، ولماذا ، ولا أعرف ومع ذلك ...

طبعا أبعدتها ! وقرّبتها من علبة السجائر . نهضت من مكاني . وذرعت ما بين ( البلكون ) وغرفة الحمّام ،ودخّنت ( وربما نسيت أن أدخّن ) ولا علينا ، وعدت إلى مكاني وجلست وكتبت وأكتب و ... لم يحدث انفجار !

أسمع من حين إلى آخر صوت محرّك سيّارة في الشارع . ( وعلى ذكر الشوارع ... ) لاحظت بعد فترة من سكناي هذه المنطقة أن أحد " الظرفاء " – وهم يقلّون في أيام الحرب – خطّ على جدار الشارع الذي يقع قبالة عمارتي – بخطّ كوفي على ما أظنّ – وبحروف كبيرة ساطعة – وبالأسود ( وهو ما يسمى عن حقّ بالدّعابة السوداء ) الكلمات التالية :

شارع الموت السريع

........................................................................

صباح الخميس 23 نفس الشهر . السنة الغريبة نفسها . المدينة العجيبة نفسها ... لم أستيقظ على صوت الرصاص . وهذا بأيّة حال أمر تافه . لم يكن كذلك طبعا . ولكنّه أصبح ، بمرور الزمن.

بالأمس ، وعلى غير عادتي لم أسدل على النافذة الستار . وحين أطفأت الضوء ، ظللت أحدق في السماء طويلا ، باحثا فيها عن نجمة واحدة ...

لم تكن موجودة . وأخذني النعاس .

# السيّد حلمي ذات مساء

شارع الحمراء ، الوقت مساء . بعض السيّارات تمرّ ، ومن هنا وهناك ترتفع أغاني فيروز أو عبد الحليم حافظ من كاسيتات الباعة المتجوّلين . السيد حلمي يتقدّم على الرصيف باتّجاه مقهى " الاكسبريس" . وحين يصل أمام واجهة مكتبة أنطونيو ، يقف برهة وكأنّه يتذكّر شيئا . لقد نسي أن يشتري هديّة لريتا . غدا عيد ميلادها الواحد والعشرين . سوف يتدبّر الأمر في الغد إذن . يشعل سيجارة ، ويواصل السير متأنّيا ومحدّقا بين فينة وأخرى في ما حوله .

على طول رصيفي الحمراء يجلس أناس وراء بسطاتهم الصغيرة أو الكبيرة : مجلات ، كتب ، حلوى ، مسكرات ، جلّاب ، أجهزة كهربائية ، شراشف ، صور ، أدوات زينة ، جوز ، تبغ ، عطور ، زهور ، فواكه ، ساعات ، ولّاعات ، سبحات ... الشرطي ينظّم " محضر ضبط " . ويشكّه تحت مسّاحة إحدى السيارات . " الدولة مرّت من هنا ! " وبائع الفستق الأسود الطويل يستند إلى الحائط منتصبا أمام مدخنته الصغيرة . إنّه الوحيد الصامت في هذا الشارع الزّاعق طيلة النهار .

" الشرطي ! لا تزال هذه الفصيلة من البشر موجودة ! يبدو كأنّه تحفة أثرية تزيّن الشارع ! " إشارة سير غرست بالمقلوب في طرف الرصيف ، تحمل في أسفلها سهما مزدوجا يجيز المرور في كلّ الإتجاهات ! الإشارة الكهربائية على مصلبيّة " الموديكا " تعمل وحدها وقد فقدت هيبتها تجاه الناس وحتّى تجاه الشرطي الذي لا يبالي بوجودها ، بل ينظّم المرور على هواه ، وحسب كثافة الزمامير .

إلى زاوية الرصيف تقف بائعة اليانصيب العمياء ، ملوّحة بكدسة من أوراق الحظ :

– بكرا السّحب ! الورقة بخمس ليرات .

" دائما بكرا السحب ! "

من زمان كانت الورقة بليرتين وكانت البائعة العمياء وكان " بكرا السّحب " وكان شارع الحمراء لا يعرف سوى بائعي اليانصيب على رصيفه .

سينما " البيكاديلّي " يعرض فلم " فلّيني " : " بروفادوركسترا " . عظيم ! يجب أن نشاهد هذا الفيلم الذي تجمع الصحف على جودته . وعلى ذكر الصحافة ، يفكّر في صديقه يوسف الذي لم يظهر في المقهى منذ يومين . ليس ذلك من عادته . وحين سأل عنه في الفندق الذي يقيم به ، قيل له إنّه في رحلة . غريب ! لم يعلمه بسفره . ربّما تقرّر ذلك في وقت متأخّر ، بحيث لم يتمكّن من إعلامه . ومع ذلك ، فالتلفون في متناول اليد .

آه ! صحيح أن التلفون في بيروت هذه الأيّام لا يمكن أن يعتمد عليه أحد . بل يكاد يكون من قبيل المعجزة الحصول على مخابرة . الحرب قطعت الخطوط ولخبطت كلّ شيء . أحيانا يمرّ اليوم واليومان بلا كهرباء ، فيعود الناس إلى الشموع ويضيئون قناديل الزيت . لقد تعوّدوا هذا الوضع منذ سبع سنوات . إنّهم يرون الموت كلّ يوم . يرونه في كل منعطف شارع ، لكنّهم يتجاهلونه . فلو فكّر المرء في الموت طوال الوقت ، لما أمكنه أن يفعل شيئا سوى ذلك . لقد أصبح الموت شيئا عاديا . مناظر الرعب ، الدم ، الانفجارات ، الخطف ، الاغتيالات ، السطو ، السرقات ، القتل ... كلّه عادي ! عادي إلى حدّ الابتذال !

– هناك فكرة واحدة تعذّبني . إنّها فكرة الموت . إنّني أشعر أن الموت موجود لا لشيء سوى لنتحدّاه ، باستمرار . حياتي بأسرها لم تكن غير معركة واحدة لم أعرف فيها انتصارا ولا هزيمة . إنّها معركتي مع الموت . فإذا كان لا بدّ أن نموت ، فلماذا خلقنا ؟ لابدّ أن هنالك معنى مّا لوجودنا على الأرض ، وأنا أبحث عن هذا المعنى بلا انقطاع . أبحث عنه في كلّ مكان أذهب إليه ، في كل وجه ألتقيه . ليس هذا فقط ، أنا لا أومن بالصدفة . لا يمكنك أن تفهمي ذلك . أنت من حضارة مختلفة . إن لكلّ إنسان طريقا . وفي هذا الطريق الذي يسلكه منذ ولادته حتّى مماته

تكون له لقاءات . وفي كلّ لقاء تتغيّر حياته قليلا أو كثيرا . إنّها ما تسمّونه أنتم الصدفة . لكن بالنسبة لنا ، لا وجود لشيء اسمه الصدفة . كلّ شيء كان لا بدّ أن يكون منذ البداية ، وبهذه الطريقة ، ولا يمكن أن تكون هناك طريقة أخرى غير التي كانت . إنّ ما يمضي لا يعود ، ومع ذلك فإنّه يعود ... ولكن بشكل آخر . أترين ؟ إنني الآن أعرف أنني هنا ، في هذه الشقّة ، وسط هذه المدينة المشتعلة ، معك أنت بالذات . لماذا كان لا بدّ أن تكوني أنت ، كريستين رولان ، في هذه اللحظة وفي هذا المكان بالذات معي أنا ؟ ماذا يمكن أن يعني ذلك ؟

– بسيطة ! يعني أنّني أحبّك .

– حسنا ! لكن هل تعرفين كم مرّة سمعت هذه الكلمة تقال لي ، دون أن يعني ذلك أبدا ارتباطا مصيريا ، ارتباطا حتميا ونهائيا ؟

– لا أريد أن أعرف ذلك .

– إنّك تخطئين حين تغمضين عينيك عن ذلك . ألا تريدين أن تعرفي ما هو الحبّ ؟ ألا تعتقدين أنّه وهم ؟

– إذا كان الحبّ وهما ، فهو وهم جميل إذن ، بل هو أجمل أوهامنا .

– أو ترضين بالوهم حتّى لو كان أجمل الأوهام؟

– انك رجل مدهش ! هل يمكنك الاعتقاد لحظة أنه بميسورنا الحياة دون هذا " الوهم الجميل "

كما تسمّيه ؟ ولأنّ ذلك مستحيل ، يصبح هذا " الوهم " أشدّ الأوهام حقيقيّة . بل يصبح هو الحقيقة ذاتها وسواها كلّ شيء باطل . ثم ما هي حياتنا في النهاية ؟ أليست سلسلة غير متناهية من الأوهام التي نصدّقها حتّى تصبح جزءا لا يتجزأ من وجودنا ، بحيث لو عزلنا حلقة واحدة من السلسلة عن الحلقات الأخرى لسقطت حياتنا بأسرها في الجنون أو العدم . لا يوجد أقسى من الوحدة على الإنسان ، ولا أحد يمكنه العيش وحده باستمرار . حتّى " روبنسن كروزويه " احتاج إلى " فندردي " في جزيرته النائية . فنحن بحاجة إلى الآخر دوما ، بحاجة إلى الآخرين . وهذه الحاجة إضافة إلى الصدفة أو القدر هي ما يخلق الحبّ . الضرورة والصدفة يشتركان في خلق الحبّ . أليس ذلك كافيا ؟ إنّه يجعل حياتنا أخفّ كابوسا وأكثر اشراقا . أنت تخاف الحبّ وتخاف الوحدة يا مراد . لكنّ خوفك من الوحدة أقوى من خوفك من الحبّ . لذلك تتصلّب وتقسو ، وتحاول الظهور بمظهر الرجل المتجبّر المكتفي بذاته . غير أنك لن تكتفي بذاتك ، لأنّ الوحدة تجعلك تأكل من نفسك وتشرب منها إلى حدّ افتراس ذاتك ، وهو ما لا يطاق . فأنت رغم كلّ شيء ضعيف كمعظم الناس . إنّك مثلي ، مثلهم جميعا ... بحاجة إلى الآخرين .

– أعترف أنّني أحبّك . حسنا ! غير أنّي كلّما

فكّرت في الآخرين شعرت حقيقة أنّهم " الجحيم " ، كما قال سارتر مرّة . بل إنّي أتساءل الآن عن السبب الحقيقي الذي جعل سارتر يكتب تلك العبارة . هل كان يعاني من عقدة اضطهاد ؟ هل كان كرجل لامع ومبدع كبير ، يشعر بأنّ وجود الآخرين ، ذلك الوجود الغوغائي الذي أعرفه جيّدا ، يحدّ من حرّيته ومن طاقته الذهنية والإبداعية ؟ أكاد لا أشكّ في ذلك . بل أكاد أجزم به . إنّ ذلك يعني في أقصاه أنّ الشعور الحادّ بوجود الآخرين ينقص من الشعور بالوجود الشخصي . إنّه أسهل طريق لإلغاء الذات الفردية الخالقة المبدعة . وبالتالي ، فإنّ أهمّ شيء بالنسبة للمبدع هو شعوره الكثيف بوجوده المتميّز . أمّا الآخرون ... فعدم ! نعم ، الآخرون هم العدم . هكذا يجب أن نشعر . هكذا فقط يمكنني أن أعيش في تناغم هادئ مع ذاتي ومع الكون حتى لا تتحول الحرب الأهلية الى داخلي أيضا ، لأنّني ما أن أفكّر في الآخرين حتّى اشعر بضيق في صدري كأنهم يمنعونني من التنفّس ، لا بل كأنهم يشعرونني ، بغوغائيتهم المجنونة ، إنّهم يشتركون معي في وجودي الخاصّ ، وإنّني يجب أن أكون كما يريدون – هم – أن أكون ... نسخة مطابقة للأصل عن أيّ واحد منهم . فأنا عندهم لست مراد حلمي الذي هو عندي مراد حلمي ولا شيء سوى مراد حلمي ، بل أنا مراد حلمي الذي يمكن أن يكون عبد الله بن عبد الله ، أو زيد ،

أو عمرو ... يعني أنّ الشرطي سوف يرى فيّ شرطيّا ممكنا ، والصائغ سوف يرى فيّ صائغا ممكنا ، والنجّار نجّارا ، والحدّاد حدّادا ، والعسكري عسكريّا ، والتاجر تاجرا ، والمجرم مجرما ، والصحافي صحافيا ، والشاعر شاعرا ... إلى آخر القائمة . أما هويّتي الحقيقيّة ، فهي ستذوب في الزّحام ، وتداس بين الأقدام ووسط الضوضاء العامة.

هل تعرفين تلك القصّة القديمة عن الرجل الذي ركب حماره ومشى ابنه بجانبه ، فقال الناس : " يا للرجل القاسي ! يركب الحمار ويترك طفله راجلا ! " فلما سمع رالجل كلام الناس ترجلّ عن الحمار فامتطاه ابنه ، فقال الناس : " يا للطفل العاق ! يمتطي الحمار ويترك أباه راجلا ! فركب الرجل وابنه الحمار معا ، فقال الناس : " يا للقسوة ! مسكين هذا الحمار الذي سيموت تحت ثقلهما ! " فترجلّ الرجل وابنه ، وربطا الحمار على عصا حملاها على كتفيهما ، فقال الناس : " انظروا إلى جنون هذا الرجل وابنه ! يحملان الحمار عوض أن يحملهما الحمار ! ؟ . " ألا تلخص هذه القصّة كل شيء ؟ أليس من الأفضل إذن أن لايفكّر الإنسان بتاتا في الآخرين ؟ أن لا يشعر بهم على الإطلاق ؟ وأن يتصرّف في الحياة كفرد حرّ يملك مصيره بيديه ، دون أن تتدخّل في هذا المصير أيّة إرادة خارجية ، سواء أكانت إرادة إلهية أو شيطانية أو ملائكية أو جنّية أو إنسية ؟

وقف السيد حلمي حذو مقهى " باريس " ليتطلّع في بسطة الصحف والمجلّات المفروشة على الأرض ، وانحنى ليلتقط مجلّة أسبوعية . ثمّ نقد البائع الثمن ومضى متأبّطا إياها . كان يشعر الآن بعدم اكتراث تامّ إزاء كلّ شيء ، مثلما كان يخيّل إليه أحيانا أنّ ما يعيشه غير حقيقي ، وأنّه أشبه بمسرحية كبيرة سوف تنتهي حتما ، ويخرج الممثّلون والمتفرّجون إلى الهواء الطلق . كانت المسرحية تبدو إليه أحيانا مسرفة في المأساوية وأحيانا مضحكة إلى حدّ لا يحتمل . وبين الحالتين ، لم يكن السيد حلمي يجد مكانا وسطا يرتاح فيه من الكابوس ، إذ إنّه في الواقع لم يكن يعيش بقدر ما كان يحلم أنه يعيش ! وكان يخّيل إليه أحيانا أنّه - بطريقة مّا - طرف مهمّ من أطراف ذلك الصراع الرهيب ، حتّى وإن لم يكن أحد يعلم بذلك ، حتّى وإن لم يكن هو نفسه واعيا بذلك تمام الوعي ! بل لقد فكّر مرّة أنّه قد يكون - هو ... مراد حلمي بالذات - سببا من أسباب الحرب ! وأن كلّ طرف من الأطراف المتنازعة يجذبه إليه ليعزّز به صفوفه ! أمّا سبب ذلك فشيء لم يكن يقدر أن يبوح به لأحد . إنّه سرّه الخاصّ. على أن السيد حلمي كان يعرف بحدسه القويّ أن سرّه لم يكن مجهولا لدى البعض . وكان بإمكانه أن يعدّ هؤلاء الذين " يعرفون " على الأصابع : فإذا استثنينا الموتى ... أو بكلمة أدقّ : بعضهم ،

( هل يبقى السرّ خفيّا حقّا هناك ... في الحياة الأخرى ؟ أمر لا يمكن حسمه إلاّ إذا قام هو نفسه بالتجربة التي لا عودة منها ، ) إذا استثنينا إذن أبانا آدم وحفيده نوحا الذي كان له الفضل في إنقاذنا من الطوفان وسائر الأنبياء والرّسل الذين لا يخفى عنهم شيء وخاتمهم نبيّنا محمّد بن عبد الله صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين ، واستثنينا الملكة عليّسة مؤسّسة قرطاج والقائد آميلكار وابنه حنّبعل وبوذا وكونفشيوس وهرمس وديوجين السفسطائي وعزير الذي قام من قبره والشيخ سعيد بن سعيد سعيدان رحمه الله الذي كان مؤدّبا في نهج " عنّقني " بباب سويقة وهو متصوّف وعالم بأمور الجن والسحر ، واستثنينا كذلك الجنديّ المجهول والإمام الثاني عشر الذي لا يعلم أحد مكانه ، وكريشنا وملكة سبأ وزرادشت والمنفلوطي ومكيافلي ويوري جاجارين الذي حقّق أول دورة حول الأرض بحيث تمكّن من أخذ فكرة واضحة عن كلّ ما يحدث فيها . بقي لنا شيخ الجبل الحسن بن الصّبّاح والحاكم بأمر الله الفاطمي وعبد الرحمان ابن خلدون ، ومن الأحياء ، وكالة المخابرات المركزية الأميركية ( C . I . A ) والاستعلامات السوفياتية ( K . G . B ) وكلّ من دار في فلكهما .

ماذا كان هذا السرّ الخطير ؟ لقد كانت المسألة كلّها كامنة في ذهن السيد حلمي بالذات . هذا

الذهن الذي لم يخلق له نظير في الشرق ولا في الغرب ، في الشمال ولا في الجنوب ، هذا الذهن الذي يشبه أن يكون آلة بإمكانها السيطرة على جميع الآلات سواء أكانت إلكترونية أم مجرّد ادمغة بشرية !

حدث مرّة أن كان السيد حلمي جالسا إلى طاولة على رضيف مقهي " المودكا " . كان يقرأ مقالة لكولن ولسن عن القدرات الخفيّة للذهن البشري . وكان الكاتب يزعم أنه بإمكان البشر – أو على الأقلّ بعض الموهوبين – إدراك المستقبل والتكّهن بالغيب . وكان السيد حلمي كثير الإقبال على قراءة مثل هذه المقالات . وكان مهتمّا بعلم الفلك والتنجيم والألخيمياء وبكلّ ما هو خارق للعادة . وفي تصوّره أنه كان أحد هؤلاء الذين منحوا قدرة اختراق حجاب الزمن ومعرفة الآتي . بل أكثر من ذلك ... كان السيد حلمي يعتقد في قرارته أنه يملك من بين مواهب أخرى – القدرة على نسف المواضيع المادّية الخارجية والتأثير في الأشياء بمجرّد التركيز . أي أنّه بإمكانه مثلا تسليط طاقته الذهنية على جدار ، فإذا به ينفجر ، أو على الكهرباء ، فينطفىء النور ، مثلما كان بإمكانه أن يملي إرادته على أيّ عقل بشري أو إلكتروني فيصبح سيّده الوحيد ...

وحين كانت الكهرباء تنقطع أحيانا في بيروت ، كان السيد حلمي يتلذّذ بفكرة أنها انقطعت بتأثير

لا إرادي منه ، إذ كانت هذه الطاقة الشديدة التي يملكها تفلت منه أحيانا ، فإذا بالسفن تغرق في البحر ، وإذا بالطائرات تسقط من السماء ، كلّ ذلك وهو لا يدري ولا يعلم إلاّ عندما يطالع الصحف ، فيأسف آنذاك أسفا شديدا ، ويحاول أن يحدّ من عمل الطاقة الهدّامة . لكن ما السبيل إلى ترويضها؟ تلك كانت مشكلته !

وبينما كان مستغرقا في قراءة المقالة ، باحثا عن أجوبة يمكن أن تنفعه في حلّ مشكلته الكبرى ، أحسّ فجأة بأنّ ذهنه يتوقّد ويشعّ بقوّة لا مثيل لها ، قوّة زعزعت الأرض من تحته ، وارتجّت الطاولة ، ورقص فنجان القهوة والملعقة ، ووقف كلّ من في المقهى على دوّي انفجار هائل ، وراحوا يتراكضون باتّجاه مكان الانفجار القريب ، إلاّ السيد حلمي طبعا ، الذي ، وإن كان اهتزّ جسده بطريقة طبيعية ، فهو مع ذلك لم يتحرّك من كرسيّه ، بل رفع رأسه ليتأمّل الراكضين والواقفين المتسائلين. وبقي لحظة يحدّق في الفراغ ، ثم قال في نفسه : " قاتلك الله يا حلمي ! عملتها مرّة أخرى ! من يعلم الآن من تكون الضّحية ! " آنذاك ، قرّر أن يدفع ثمن قهوته ويذهب ليرى نتيجة " فعلته " اللاّإرادية .

وما أن تحرّك السيد حلمي باتّجاه مكان الحادث ، حتى تبيّن له ما كان يحدسه ولا يريد الاعتراف به . فقد كان يرفض في الآن ذاته أن تكون له

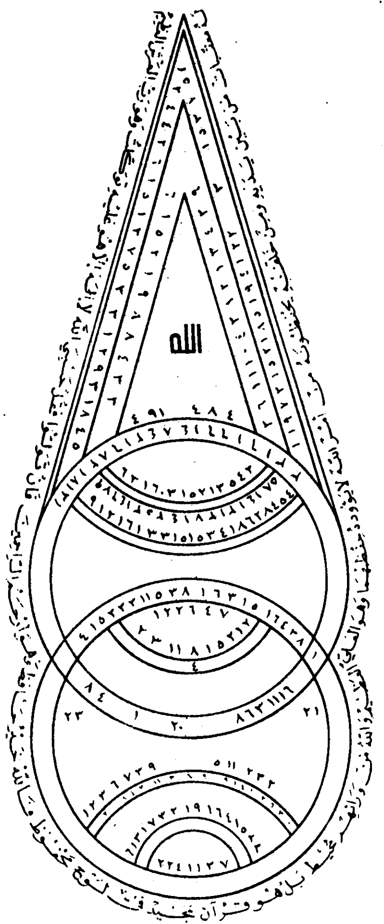
مثل هذه القدرة الرهيبة في نسف البنايات وتفجير المنازل الآمنة ولو بطريقة لا إرادية ودون وعي منه . إنّ هذه الأعمال الإجرامية لا يمكن أن تصدر سوى عن عقل شرّير . وكان السيد حلمي يرفض أن يكون له هذا العقل ، إلاّ أنّ ذلك لم يكن يمنعه أيضا من التلذّذ بفكرة قدراته العليا ومعجزاته .

وخيّل له وهو يتقدّم باتّجاه مكان الانفجار ، أنّ أحد العابرين همس باسمه وهو يمرّ بمحاذاته وغمز إليه بعينه . وانتفض السيد حلمي حين رأى أحدهم يركض صائحا : " حلمي ! حلمي ! حلمي القذر ! " يا للمصيبة ! لقد عرفه هذا الرجل . كيف أمكن ذلك ؟ سوف يفضحه الآن في المدينة كلّها ويفشي سرّه . والتفت وراءه ليرى أين مضى الرجل . لقد غاب مرّة واحدة كأنّه لم يكن . هل قال " حلمي القذر ! " حقا ؟ ألم يسمعه يقول ذلك ؟ لعلّه لم يقلها . لعلّه قال شيئا آخر اعتقد حلمي أنه اسمه . يمكن أن يكون هناك شبه بين الكلمة التي صاح بها ذلك الرجل وبين اسم حلمي . بل لعلّه لم يقل شيئا حين مرّ بجانبه ، لأنه مرّ بجانبه ، هو متأكّد من ذلك . لكن هل تكلّم ؟ هل قال شيئا مّا ؟ هل صاح ؟ لم يعد يعرف ! والتفت مرّة أخرى . هل مرّ ذلك الرّجل حقا ؟ هل كان له وجود ؟ لم يعد متأكّدا من أيّ شيء ! وتقدّم . الشيء الأكيد ، هو أنه سبّب كارثة أخرى . هذا على الأقلّ لا يمكن الشكّ فيه .

وها هو الآن يعاين جريمته بنفسه : شظايا من الزجاج ، أنقاض ، حريق ، جثث ،دم ، دم ، دم ....
وجاءت سيارات الإسعاف ، جاء رجال المطافي ، جاء مسلحون ، وهرب حلمي . بدأ يركض ، وانعرج مع شارع جانبي باتّجاه الجامعة الأميركية ، ونزل الدرج الحجري لاهثا ، كان يقفز الدرجات ثلاثا ثلاثا ، وكانت صور الجثث والانقاض تقفز في ذهنه ، ونظر إلى السماء ، كانت النجوم تقفز ، والقمر يقفز . هل ستسقط ؟ هل ستسقط الكواكب ؟ هل ستسقط ؟ هل سيشتعل كلّ شيء ؟ هل سينتهي كلّ شيء ؟ البحر ! البحر ايضا يقفز . لا ، لا . البحر في مكانه . لم يتحرّك . إنّه هناك ، لا يزال هناك ، ساخرا ، لا مكترثا ، بلا حدّ . ما أعظم البحر ! ما أعظم طمأنينته ! ما أعظم ألوهيته ! ووصل أسفل الدرج . اتّجه نحو الكورنيش . قطع الطريق دون التفات إلى السيّارات حتّى كادت تدوسه إحداها ، ولعنه السائق ، فلم يبال ، بل واصل سيره اللاّهث إلى أن وقف أمام البحر ، وارتمى على كرسيّ ، لا يعرف كيف أتى إلى هناك ، وراح يسرّح النظر في تلك الزرقة العميقة الممتدّة أمامه بلا حدود . لم يكن يعرف كيف يتخلّص من ذهنه . لم يكن يعرف الطريق التي تقوده إلى الراحة . كان ذهنه مسيطرا عليه سيطرة تامة . وكان يحسّ أنه غدا مجرّد دمية تحرّكها إرادة هذا الذهن الرّهيب .

لا ، لا ، لا . كلّ هذا هذيان ، هراء ، جنون . أنا لست عقلا ، أنا رجل من لحم ودم . كلاّ ، لست أحلم . إنّما أنا أعيش حقيقة في هذه المدينة المتفجّرة . أنا لست مجنونا ، بل هي المدينة ، المدينة ! كلّهم مجانين ، كلّهم . وضّاح ، ورئيس التحرير ، وقاسم رزق ، والإيراني الذي لعب اللعبة ، والإيطالية ، وموظّف السفارة ، وكريستين رولان ، وريتا . حتّى ريتا مجنونة ! ماذا تريد ريتا ؟ ريتا تريد أن ترسم لوحات زيتية . تريد أن تصوّر أطفالا ممزّقي الأجساد وأنقاضا ودماء . تريد أن تنقل البشاعة والفوضى إلى المعارض الفنّية . ما حاجتنا إلى ذلك ؟ ألا يكفي كلّ ما نعيشه ؟ ألا يكفي ما نقاسيه ؟ ريتا تريد أن تحبّني . تريد أن أحبّها . وأنا كيف أحبّها ؟ إنّني لا أراها . لا أعرفها . إنّي لا أرى أحدا . أين مضوا ؟ أين ذهبوا كلّهم ؟ ها أنا وحدي . تركوني للموت بين الأنقاض وفرّوا من مدينتهم . تركوا مدينتهم للطيور الحديدية . الطيور العمياء الآتية من الجنوب . الآتية بالعواصف والأمطار الحمراء . حمراء ، حمراء ، حمراء ! ها أنا أسير في الحمراء . غابة حمراء . اسمنت ، بلور ، حديد ، رصاص ، حجر ، ذهب ، أوراق ، أوراق ، أوراق ، حبر ، معادلات رياضية ، هندسة معمارية . أنا مهندس معماري ! سوف أعيد بناء هذه المدينة هناك ، في السماء . سوف أصعد الى

السماء لأبنيها في كوكب الزّهرة . الزّهرة كوكب الجمال الأبدي . فينوس الطالعة من البحر الأزرق عارية ، موشّاة الجسد بالنّجوم والزبد . فينوس ملكة سبأ . علّيسة المغامرة . سوف أتزوجها ، لنبني معا مدينتنا ونقيم فيها خالدين .
الآن يمكنني أن أرى كلّ شيء بوضوح تام . يمكنني أن أرى كلّ شيء :



ها ها ها ها ها ها ها هي هي هي هي ها ها ها ها
هي هي هي هي ها ها ها ها ها ها ها ها ها ............
أنا ملك المدينة . أنا النّبيّ الذي يرى ما لا يراه
الآخرون . إنّهم لا يعلمون ، لا يعلمون . عميان !
عميان ! عميان ! أنا ملك العميان . فاتح كبير ،
من سلالة الغزاة المهزومين . ليتقدّم الآن التاريخ .
هأ ! هأ ! ليتقدّم . وإن لم يتقدّم قدّمناه
بضرب قفاه . إلى الأمام ! أيتها الآلات ، أيّتها
الأسوار ، أيّتها الجحافل ، أيّتها المدن ، أيّتها
القرى ، أيّتها الأرياف ، إلى الأمام ! أيّتها
الحمير ! احملوا المدافع . فوق ، فوق . نار !
على الطائرات . صواريخ . نار ! اقذف . بدأت
الحرب . نحن الآن في المواقع الأمامية . بدأ
الزحف . جيوشنا تحاصركم . لن ينفعكم نابوليون ،
ولا ستالين ، ولا روزفلت . لن ينفعكم الجنرال
الأعور ، ولا العجوز العانس ذات الوجه المشعّر .
لن ينفعكم أحد يا أبناء إسحق . إلى الأمام !
نحن الغزاة ، وأنتم المهزومون . وليتقدّم
التاريخ . سوف نقدّمه بضرب مؤخّرته بجزمنا اركل .
اركل ، اركل . التاريخ حمار . اركل ، اركل .
مكتوب في اللوح المحفوظ . مكتوب منذ الأزل . سوف
يظهر قائد عظيم يتحالف مع الروس ويقود المسلمين
إلى المجد . أنا القائد . نوستراداموس قال لي
ذلك . نوستراداموس لا يكذب . حربنا بدأت الآن ،
ولن تنتهي إلاّ بعد عشرين سنة . وحين تنقضي

العشرون يكون كل شيء قد احترق . أجساد البشر ، عماراتهم ، مصانعهم ، ثكناتهم ، مدنهم ، قراهم ، بحارهم ، صحاريهم ، جيوشهم ، قادمون، قادمون ، قادمون . أنا لست جنكيز خان ، لست نابوليون ، أنا الناصر صلاح الدين . وهذه هي الحرب الصليبية الأخيرة بيننا وبينكم . لن يبقى شيء . قادمون . لن يبقى شيء . سوف نهدم كلّ شيء . بدأ الدمار . 10 — 9 — 8 — 7 — 6 — 5 — 4 — 3 — 2 — 1 — نار . انطلق الصاروخ ( 00 م ج ك ) . ها هو يشقّ الفضاء الفضاء . إنّها مسألة ثوان الآن : نيويورك ... خراب ! 10 — 9 — 8 — 7 — 6 — 5 — 4 — 3 — 2 — 1 — نار ( 00 م ع ث ) سقطت تل أبيب ! أعيدوا ، أعيدوا . يا للجمال الإلهي ! ما هذا بسحر ! إنّه القدرة ، القوّة ، السيطرة ، الجمال ! انظروا كيف تتساقط المدن حين تقع عليها صواريخنا كأبنية من الورق الكرتوني . أعيدوا ، أعيدوا . لا . ليست هذه هيروشيما جديدة . ليست ناجازاكي . حبيبتي ريتا ، لن أموت . أنا صانع هذا التأريخ الجديد. مكتوب ، مكتوب . نوستراداموس قال لي . نوستراداموس لا يمكن أن يخطىء . وضّاح ! أين أنت يا وضّاح ؟ يا كولونيل وضّاح . سوف أسمّيك جنرالا ، لكن امحق هذه المدينة . بيدنا الآن كلّ شيء . بيدنا القوّة ، السيطرة على العالم ،الخرائط ، الجغرافيا . كل شيء سيتغيّر . نحن العرب . نحن

العرب الفاتحون ، سلالة الخالدين . المجد لنا !
المجد لنا ! المجد لنا ! الآن سوف نضحك بدورنا
ونترك البكاء لهم . جاء دورنا للضحك . تقدّموا ،
إلى الأمام ... سر ! 1 — 2 ، 1 — 2 ، 1 — 2 .........
الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! . 1+1=2 ،
2+2=4 ، 4+4=8 ... إلى الأمام ! يا جيوش العرب !
اكنسوا هذه الخريطة ، إنّها لا تعجبني . اكنسوا
هذا التاريخ ، إنّه مقزّز . إلى الأمام ! تقدّموا .
البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وإذا جاء نصر
الله والفتح ... هأ ! هأ ! هأ ! البوليس السرّي
يتبعني . الموساد . الخونة . الاستعلامات جواسيس .
يريدون قتلي . لن يستطيعوا . سوف أتخبأ هنا ،
في هذا القصر . كلاّ . إنّه لا يليق بمقامي . إنّه
يشبه صندوق القمامة . رائحته كريهة . سوف
أتخبأ في الشمس . يمكنهم آنئذ أن يحاولوا
اللحاق بي ، لكنهم سيحترقون . أنا الوحيد الذي
لا يمكن أن يخترق . أنا الملك — الشمس . إنّي
أسمعهم ، أعرف أنّهم هنا . أعرف أنهم يترصدون
حركاتي ، كلماتي ، التفاتاتي ، بسماتي ، ضحكاتي ،
خوفي ، شجاعتي ، عقلي ، حكمتي ، جنوني . أنا
الملك — الشمس . لكنّهم يتبعونني كظلّي . لا أعرفهم .
إنّهم ليسوا من حاشيتي . لا أعرفهم . جواسيس .
أنذال . فئران المخابرات . يختبئون في كلّ
مكان . في الشجر ، في الأزهار ، في الراديو ،
في الجريدة ، في الحبر ، في المقهى ، في الكرسي ،

في الطاولة ، في قميصي ، في حذائي ، في جوربي . إنّهم في كلّ مكان ، في كلّ مكان . كالقمل ، كالبرغث ، كالحشرات الطفيلية . يجب أن أتلفن لصديقي . يجب أن أعلمه أنهم يريدون اغتيالي . لا ، لا . إنّهم يتنصّتون على التلفون . يسمعون حتّى أفكاري التي لا أنطق بها . دخلوا في عقلي . يحاولون تحطيم ذهني . ذهني لا يتحطّم . ذهني قوّي ، فريد ، صاف . أعصابي حديد . لا شيء يمكن أن يدمّرني . لا شيء ،لا شيء . هل تسمعون أيها الجرذان ؟ إنّني أعرفكم . أعرفكم جيّدا منذ زمان . أعرفكم منذ ولدت . أعرف أنّكم تتّبعونني بلا كلل منذ حداثتي ، وتقيّدون كل تفاصيل حياتي في دفاتركم . تسجّلون حزني وفرحي ، بكائي وضحكي ، وتعرفون أنّني ضدّكم . ولا يمكن إلاّ أن أكون ضدّكم من الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال إلى الجنوب . ضدّكم منذ ولدت وإلى أن أموت . لكنّي لن أموت . أنا خالد ، خالد أيّها الجرذان ! أنا التاريخ الذي سوف يسحقكم ، التاريخ الذي لا يمكنكم تشويهه ، التاريخ الذي لا يمكنكم أن تصلوا إليه . وأنتم الموتى ، أنتم السماسرة ، أنتم الإرهابيون ، أنتم اللاشيء ، العدم ، أقلّ من العدم . أنتم ما لا أسميه مخافة أن يتّسخ لساني بذكره . اتبعوني . سوف أضحك عليكم ، وأجعل مؤخّراتكم تعرق وتلتهب . الشمس ! أنا الشمس ، يا أبناء الظلام ! لن أموت .

ريتا ! ماذا أهديك في عيد ميلادك ؟ أتحبينني ؟ أتحبّين مجنونا يا ريتا ؟ تحبين مهندسا معماريا مجنونا ؟ هل ترين تلك العجلة الحديدية التي تدور على الكورنيش ؟ إنّها أنا . ألا ترين كم تشبهني ؟ مثلها أنا أدور حول نفسي . أدور ، أدور ، بلا دوران . أعرف أنني أعرف . أنا = 1 . لا حاجة للآخرين . لا حاجة للآخرين . إنّهم ما لا يحتمل . أنا . أنا ، أنا ، أنا . كلّ شيء يعود من جديد . كلّ شيء يعود بلا جديد . وفوق ، حين أرفع رأسي إلى فوق ، حين أرفع رأسي إلى النجوم أسمع ضحكي في الأثير ، ضحكي الذي لا ينتهي كموج البحر ، كالآفاق ، كالله . لا ، ليس ضروريا أن أكون وحيدا . ليس ضروريا أن أكون مع الآخرين ، في الآخرين ، كالآخرين . ليس ضروريا أن أكون أنا هذا الوجه المقنّع ، هذه الأسنان البيضاء ، هذا الجسم الهزيل ، هذه الرؤية الفولاذية كحدّ السيف . ليس ضروريا أن أكون كما يعتقدون ، في هذه المدينة الغريبة حيث تقودني خطواتي إلى الكهف . كلّا ، لست من أهل الكهف . أنا من القرن العشرين . ها ها ها ها ها ! من القرن العشرين . انتهت الحروب الصليبية ، انتهت حرب البيلوبونيز ، حرب الثلاثين السنة ، الحروب البونيقية ، حنبعل ، شيبيون ، صلاح الدين ، باربروس ، خالد بن الوليد ، نابليون بونابرت . حتّى ستالين انتهى ، وسقط شارباه في الحفرة .

أنا من القرن العشرين . قرن البيافرا والفييتنام وهيروشيما والجزائر وفلسطين . قرن دير ياسين وساقية سيدي يوسف والفاكهاني . قرن المستعمرات والمغامرات الكبرى . إيلفيس بريسلي والكوكاكولا وقنبلة النيوترون . إنّي أتجوّل في الشارع ، مسدّسي في جيبي . انتبهوا ! سوف أطلق النار على أيّ شبح يتحرّك . انتبهوا ! لن أكرّر تحذيري مرة أخرى . لا أريد أن أبني مدينة . أريد أن أقتل، أن أقتل ، أن أقتل . مسدّسي في جيبي ، وأنا أتجوّل في المدينة . العساكر حين تراني تهرب . الحواجز ترفع ويفسح لي الطريق دائما . لا حاجة لبطاقة هوية . هويتي مسدّسي . انتهى . اتّخذت قراري . لقد تحوّلت ، ولن أعود إلى الوراء . أنا الآن إرهابي ، إرهابي ، إرهابي . هأ ! هأ ! هأ ! لماذا ترتعشون ؟ ما لكم ترتعشون ؟ الخوف ! ها ! ها ! الخوف ! من سأقتل الآن ؟ بمن سأبدأ ؟ الجرذان ! سوف أطلق النار على الجرذان التي تتبعني . مخابرات ، مخابرات ، مخابرات ! الحرب الباردة تندلع بيننا . حرب لا هوادة فيها ، حرب استنزاف ، تدمير أعصاب ، تجويع ، موت . لكن أنا ... لا يموت . لا يموت أنا . أنا ... يبقى . أنا ... يعيش . يعيش ... أنا ! طق ! طق ! طق ! قتلتك . اذهب للجحيم ! طق ! طق ! أنت أيضا ، إلى الجحيم ! طق ! طق ! طق ! طق ! قتلتهم ، قتلتهم . أنا الآن في الطريق إلى المجد .

مجد الظلام . أتبع ظلّي على الرصيف . أباغته يسبقني إلى المقهى . ماذا يريد أن يفعل في المقهى ؟ لا أريد الدخول إلى المقهى . تعال هنا أيها الغبيّ ! تعال قلت لك . لا تريد ؟ كلاّ ، إنه لا يريد . هاك إذن ... طق ! طق ! طق ! مت ! إلى الجحيم ! هأ !

عد الى عقلك يا حلمي . ماذا دهاك ؟ إنّك لم تعد تعرف ما تفكّر . لم تعد تعرف ما تقول . هل كلّ هذا من أجل امرأة مضت ؟ افتح عينيك يا صديقي . الدنيا لا تزال بخير . الحرب لم تدمّر كلّ شيء . المدينة هنا ، راسخة في الأرض . ثمّ ... هناك الأصدقاء ، المقهى ، الأحاديث . افتح قلبك لهم وتكلّم . لماذا تدفن كل هذا الغيظ في صدرك ؟ هل أنت مهندس معماريّ حقا ؟ من أين أتيت بهذه الفكرة سامحك الله ! ؟ حلمي ، ياحلمي. استيقظ يا حلمي . إنّك تمشي نائما في شوارع المدينة . لا ترى أحدا . لا ترى شيئا . الحرب بشعة حقا . كلّ حرب بشعة بلا استثناء . لكن بشاعتها لا يجب أن تغطّي رؤيتك . ادخل إلى المقهى واختر لك كرسيا واجلس مع الأصدقاء كالعادة . أنصت إلى أحاديثهم وتحدّث إليهم . إنّك لا تعيش وحدك . إنّهم هنا . حلمي . إنّهم هنا . يوسف وثريّا وأبو الكرم حتّى ماهر الأسعد ... المجنون الطّيب . انظر إلى صديقك ماهر . انه هنا يوزع ورقات الرزنامة كعادته دائما . يكتب القصائد

على علب التبغ . وريتا . هل رأيت ريتا ؟ إنّها هناك أيضا . تجلس في زاوية من المقهى تطالع مجلّة . هل فكّرت في هدية لعيد ميلادها ؟ هل فكّرت في المقالة التي يجب أن تكتبها ؟ والتحقيق عن مستشفى المجانين ؟ إلى متى ترجئه ؟ هل ستكتبه أم لا ؟ هل ستذهب إلى العصفورية يا حلمي ؟ هل تخاف أن تذهب لرؤية المجانين ؟ لماذا ؟ هل تخاف أن يحبسوك هناك ؟ ولكن أنت لست بمجنون ! أنت عاقل يا حلمي . شب إلى رشدك يا للسماء ! استيقظ .

ما هذا ؟ حبّات من العرق ؟ كلاّ . ماء ! إنّه ماء . ماء ينزل من السماء . مطر ، مطر ، مطر .

" هل تعرفين أيّ حزن يبعث المطر ؟
وكيف تنشج الميازيب إذا انهمر ،
وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع ،
بلا انتهاء ، كالدم المراق ، كالجياع ،
كالحبّ ، كالأطفال ، كالموتى – هو المطر ،
مطر ... مطر ... " *

من كان وراء صفقة السلاح إذن ؟ أنت تعرف الحقيقة . وضّاح قال لك كلّ شيء . قال لك إنّه وجده مقتولا . من قتله إذن ؟ ولماذا ؟ لا تهتمّ . لا تهتمّ بهذه القصّة مرّة أخرى . لا تعد للكتابة عنها . هل تريد أن تحفر قبرك بيديك ؟ لا تهتمّ ، لا تهتمّ ، لا تهتمّ أبدا . كن غبيّا ! اجعل نفسك لا تفهم شيئا . أغمض عينيك عن الحقيقة .

---

* أنشودة المطر: ب . شاكر السياب

قل إنّ الحقيقة لا يعلمها إلاّ الله ! العلم لله وحده ! كلّ هذه القصّة كانت من البداية مجرّد سوء تفاهم . لا تشغل نفسك أكثر من ذلك . انتبه ! إنهم يترقّبون الآن أوّل زلّة لقتلك . أنت تعلم أكثر ممّا ينبغي لك أن تعلم . ليس من المفروض أن يعرف مجرّد صحافي بسيط كلّ هذه القصص الفائحة بعطر الموت والذهب . لقد انصرفت إلى أبعد حدّ . صعدت أكثر ممّا ينبغي . أين رميت نفسك يا صديقي ؟ هل تلعب مثل هذه اللعبة ؟ هل تريد أن تفضح الماخور وسكّانه وزبائنه والمشرفين عليه ؟ أين تظن نفسك ؟ هل تعتقد أنّهم سيسمحون لك بوضع أنفك حيث لا يجب ؟ وضّاح نفسه لا يمكنه إنقاذك . وضّاح لا يمثّل شيئا . هل تفهم ؟ إنّه لا يمثّل شيئا إطلاقا . وحين يقرّرون تصفيته ... كلاّ . لن يقدروا على ذلك . حسنا ! هو محميّ من طرف المنظّمة . وأنت من يحميك يا صديقي ؟ من يحميك ؟ هل فكّرت في هذا ؟ أنت لا تنتمي إلى أحد . أنت لا تنتمي إلاّ إلى نفسك . ضع هذا في عقلك مرّة واحدة ولا تنسه أبدا . ولا تنس : " من ليس معنا ، فهو ضدّنا ! " لتكن هذه العبارة قرآنك . كرّرها لنفسك كل صباح وكل مساء . قلها قبل أن تنام ، وقلها حين تستيقظ . قلها حين تفطر ، وقلها حين تدخل المرحاض . قلها حين تشرب ، وقلها حين تكتب . قلها حين تنكح ، قلها حين تتنفّس . " من ليس معنا ، فهو ضدّنا ! "

من ليس معنا فهو ضدّنا ...

هل أنا جاسوس ؟

هأ ! هأ ! لا شكّ انّني جاسوس ! هأ ! أنــــا " جيمس بوند " ! هأ ! هأ ! " وأنا أحاصركم ، أحاصركم ، وصدري باب كلّ الناس – فليأت الحصار*."

---

* أحمد الزعتر : محمود درويش .

# المطاردة

" أحمد الآن الرهينة
تركت شوارعها المدينة
وأتت إليه
لتقتله
ومن الخليج إلى المحيط ، من المحيط إلى الخليج
كانوا يعدّون الجنازة
وانتخاب المقصلة . "

— محمود درويش —

هذه المرّة صفّرت قرب أذنه . ولم ير وضّاح من أين أتت الطلقة . كان الظلام يخيّم على ( الكورنيش ) ، وكان المطر يتساقط بغزارة . لم يبق في مسدسه سوى ثلاث رصاصات . إنّها رصاصاته الأخيرة . وهم وراءه . لا يعرف كم عددهم . ربّما ثلاثة أو أربعة . لم يتمكّن من إصابة أحد منهم . لكن الدّم كان ينزف بغزارة من جرحه . أولاد الفواجر ! " لقد أصابوه في كتفه اليسرى . كيف الفرار الآن ؟ لو تحرّك من مكانه لأطلقوا عليه . وإلى أين ؟ ليس وراءه إلاّ البحر .

كان يختبىء خلف السور الحجريّ متشبّثا بالصخور. وكانوا خلف السيارات الرابضة حذو الرصيف . ودمدم مرّة أخرى بين أسنانه : " أولاد الفواجر ! " ها هي الدائرة تدور لتنغلق عليه شيئا فشيئا . وهذا الدم الذي ينزف من كتفه . وهذه الأمطار المتهاطلة من السماء . " يا إلهي ! أعطني القوّة ." ولعلع الرصاص مرّة أخرى . واشتعلت السماء ببرق شطرها شطرين . هل هو الموت ؟ هل هي النهاية ؟ هل هكذا يأتي الموت بهذه الطريقة الغادرة ؟

أيّهما أفضل ؟ أن يقتلوني أو أقتل نفسي ؟ لن أتركهم يأخذونني . لن أتركهم يأخذون إلاّ جثّتي . وحتّى جثّتي ، فهم لن ينالوها . سوف أتبخّر . سوف أذوب بين أيديهم كما تذوب قطعة الثلج في الشمس . سوف أختلط بهواء الليل . أنا ريح . نسمة . كائن لا يرى . لا يلمس . أنا حتفهم .

وأطلق رصاصة أخرى وهو يكزّ على أسنانه ، فانصبّ فوق رأسه وابل من الرصاص . وقفز فجأة على صخرة أخرى ، وجعل يركض فوق الصخور باتجاه البحر . لكنهم رأوه ، فلحقوا به . التفت . رأى أشباحهم ، وسمع لعلعة الرصاص في هواء الليل البارد .

لن يسقطوني . لن يقدروا . لن يقدروا . لن يقدروا أبدا سوف أصل إلى هناك . سوف أصل . سوف أصل . إنّي أرى القدس . أرى القدس هناك... في البحر . في البحر .

وامتدّ البحر أمامه . امتدّ كفوهة سوداء منفتحة على المجهول . امتدّ شاسعا واسعا بلا نهاية ، معانقا نفسه من الأزل إلى الأزل . ما هي سوى خطوات . لم تعد تفصله عن الماء سوى خطوات . هل سيصله أبدا ؟ هل سيصله أبدا ؟ وركض بقوّة . لم يكن يسمع أنفاسه المتلاحقة . لم يكن يشعر بجسمه المعروق . وانشقّت السماء مرّة أخرى واشتعل الليل . وأحسّ لسعة في ظهره .

لكنّه بقي يركض ، والرصاص يتطاير حوله إلى أن وصل إلى حافة الماء الأسود ، وقذف بنفسه في اللّجح ، وصار يسبح ، يسبح ، خابطا بيديه ورجليه في اتّجاه الأفق .



https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

انتهت

تونس ، جوان ( حزيران ) 1983

محتوى الكتاب



عدد الناشر : 200 — 59 — 85

انتهى طبع هذا الكتاب
بمطبعة دار القلم
تونس

أيّهما أفضل ؟ الخنجر أم المسدّس ؟ أ طعنة في القلب أم طلقة في الرأس ؟ مع رجل مثله ، سوف تكون الطلقة رأفة به . هل يستحقّ هذه الرأفة ؟ كلاّ . الأفضل أن أطعنه في عنقه . لمسة واحدة بحدّ الخنجر سوف تمزّق شرايينه ، وتفتح في عنقه ثغرة قاتلة . ثمّ يأتي الموت ببطء . ويتفجّر الدّم ، تجحظ العينان ، وكأنهما لا تصدّقان . تحاول اليدان التشبّث بشيء ما . لن أدعه يتشبّث بشيء . من يدري ؟ قد يكون مسلّحا . سوف يحاول الدفاع عن نفسه . لا بدّ من الاحتياط . هذا احتمال وارد . يجب أن أكون أسرع منه . لكن ، لو أطلق عليه الرصاص ... الرصاصة سريعة . لا مجال معها للمقاومة . طلقة واحدة بين العينين، وينتهي كلّ شيء . مع الخنجر ، يختلف الأمر . يجب أن أكون قريبا منه . وإذا لم تكن الطعنة قاتلة ؟ طعنة واحدة لا تكون قاتلة أبدا . عليّ أن أطعنه أكثر من مرّة . مرّتان ، ثلاثا ، أربعا ، خمسا ...

الدار العربية للكتاب : المقر الرئيسي: عمارة وفاء: شارع غومة المحمودى
ص. ب 3.185 الهاتف: 47.287 طرابلس ــ الجماهيرية العربية الليبية ــ
الفرع الرئيسي: المنار2، نهج 7101 رقم 4 ــ الهاتف: 236.600 ص. ب: 1.104، تونس العاصمة. الجمهورية التونسية.

الثمن : 1.000 د.ل ــ 2.800 د.ت